بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأنفال: وهي مدنية، آياتها سبعون وخمس آيات، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١)].

قال البخاري قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الأنفال: المغانم، ثم روى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس -رضي الله عنهما-: سورة الأنفال قال: نزلت في بدر.

أما ما علّقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم كانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خالصة ليس لأحد منها شيء، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة، وعطاء الخرساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغانم، وقيل: النفل ما ينفِّله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وقيل: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس، وقيل: هو الفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال، وما شذ منهم إلى المسلمين من دابة أو عبد أو متاع.

وروى ابن جرير عن علي بن صالح بن حيي قال: بلغني في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} قال: السرايا، ومعنى هذا ما ينفِّله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة مدنية، بجميع آياتها، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وإن قال من قال: إنه يستثنى منها قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ}**[سورة الأنفال(٣٠)]، وما بعدها بنحو ست آيات، ومستندهم في هذا هو أنهم لاحظوا المعنى، فما يتعلق بهذا المكر بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ليقتلوه أو يخرجوه إنما كان بمكة، لكن هذا لا يكفي للحكم بأن هذه الآية مكية أو مدنية، وأن الأصل في السورة المكية أن تكون جميع الآيات نازلة بمكة، وأن السورة المدنية تكون جميع الآيات نازلة في المدينة إلا لدليل، وأما ما يذكر من جهة المعنى فحسب فهذا لا يكفي، ومعنى قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** أي: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، كما قال الله -عز وجل-: **{وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ}** [سورة الأنفال(٢٦)] تُذكِّرهم بشيء مضى، فهذه السورة بجميع آياتها مدنية، -والله تعالى أعلم-.

وقوله -تبارك وتعالى -: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} هذا السؤال سؤال استعلام، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} لم يذكر ربنا -تبارك وتعالى - في هذه الآية المسئول عنه على سبيل التحديد والتفصيل، وإنما أبهمه كما في سائر المواضع الذي ورد فيها السؤال، ولم يقل: يسألونك عن حكم الأنفال، هل هي حلال أو حرام؟، فقد كانت محرمة على الأمم السابقة، فكانت تُجمع في مكان واحد بعد المعركة، ثم تنزل نار من السماء فتحرق هذه الأنفال -أي الغنائم -، وهذه الأمة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم - في ذكر خصائصها: ((وأحلت لي الغنائم))[1]، وهذا السؤال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} لم يحدد فيه المسئول عنه من حيث أنه الحكم في أصل الأنفال هل هي حلال أو حرام، أو لمن تكون، ولا كيفية التقسيم، وهي كقول الله -عز وجل -: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ} [سورة البقرة(٢٢٢)]، يحتمل أن يكون السؤال عن سبب المحيض، لماذا يأتي المرأةَ الدمُ؟، أو عن هذا المحيض هل هو نجس أو طاهر؟، أو عن هذا المحيض ما الأحكام التي تتصل بالمرأة من الصلاة وغيرها، ومخالطة الرجل ومؤاكلته، أو عن الجماع في حال الحيض؟، وهو المراد {قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ} [سورة البقرة(٢٢٢)] وقد جاء في قراءة ليست متواترة، قرأ بها بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه -، وغيره {يسألونك الأنفال}، ومعنى هذه القراءة أي: يطلبونك الأنفال؛ لأنهم طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم -، فسأل سعد -رضي الله تعالى عنه - النبي -صلى الله عليه وسلم - سيفاً أعجبه، وكانت هذه أول معركة تحصل بها غنائم للمسلمين، واختلفوا فيها ولم ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم - شيء في حكم ذلك، فاختلفوا فيها لمن تكون، لأنهم كانوا على ثلاث طوائف: طائفة بقيت تحرس النبي -صلى الله عليه وسلم -، وطائفة ذهبوا يطاردونهم، وطائفة عكفوا على جمع الغنائم، فلما رجع أولئك واجتمعوا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم - تنازعوا، هؤلاء قالوا: نحن قبضناها، وهؤلاء قالوا: نحن الذين ذهبنا نطارد العدو فنحن أولى بها منكم، والآخرون قالوا: نحن كنا رفداً لكم لو أنكم انهزمت لانحزتم إلينا، بقينا نحرس رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ونحوطه، فنحن أحق بها، فالله -تبارك وتعالى - قال: {قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} فجعل حكمها لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم -، وليس لهم، يحكم فيها بأمر الله، والأنفال: جمع نفل، ويأتي لمعانٍ عدة، الذي يصلح منها هنا هو الزيادة، مثل: صلاة النافلة، باعتبار أنها زائدة على الفريضة، وولد الولد يقال له نافلة {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}[سورة الأنبياء(٧٢)] ولد الولد زيادة على الولد، وهذه الغنائم قيل لها: أنفال؛ لأنها زيادة لهذه الأمة، أحلت لهذه الأمة ولم تحل لأحد قبلها، أو قيل لها ذلك: لأنها زيادة في حظ المجاهد، فوق الأجر الذي يحصل له بسبب هذا الجهاد، ويقول ابن كثير -رحمه الله -: قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: المغانم. هذا القول هو المشهور الذي عليه الجمهور، الأنفال هي الغنائم، والعلماء رحمهم الله اختلفوا كثيراً في الأنفال وفي الفيء أيضاً، ما المراد بهذه الأنفال؟، وذُكر هنا عن ابن عباس أنه قال: إن هذه نزلت في بدر، وذلك حينما تنازعوا في أمر الأنفال، وأنها كانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - خالصة ليس لأحد منها شيء، بمعنى أن قوله: {قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} أي: أن حكمها لله والرسول، قيل: المراد بأنها لله والرسول، بأن الله -عز وجل - جعلها لرسوله

---

1 - رواه البخاري برقم (٤٢٧)، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه و سلم: ((جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا))، ومسلم برقم (٥٢١)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

-صلى الله عليه وسلم - فهي حق له، وليست القضية تتعلق بحكمها، وليست للمقاتلين، هذا في أول الأمر، ثم نسخها قول الله -تبارك وتعالى - بعد ذلك حينما اطمأنت نفوسهم، وانقادوا لحكم الله -عز وجل -، وارتفع الشقاق والنزاع بينهم أنزل الله -عز وجل -: **{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى}** [سورة الأنفال(٤١)] قال هذا جمع من أهل العلم، وعلى هذا تكون هذه الآية **{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم}** نزلت في بدر، وهذا هو الأقرب، فالنبي -صلى الله عليه وسلم - قسم غنائم بدر وخمسها، بدليل حديث علي -رضي الله عنه - في الشارف، أوفي الشارفين اللذين نحرهما حمزة -رضي الله تعالى عنه - والقصة في الصحيحين[2]، فعلي -رضي الله تعالى عنه - ذكر أن أحدهما وقع له في سهمه في الغنيمة، وأن الآخر أعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم - إياه من الخمس، فدل على أنها خمست، ولذلك قال ابن كثير -رحمه الله -: إنها كانت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - خالصة ليس لأحد منها شيء، أي: أن الأنفال التي هي الغنائم، على المشهور، وهو الأقرب، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله - جملة ممن قال به وهو قول الجمهور، وذكر قولاً آخر وهو: أن الأنفال ما يعطيه الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، فقالوا: هذه هي الأنفال، أنس -رضي الله تعالى عنه - أعطاه أمير شيئاً من الغنيمة قبل أن تقسم فأبى وقال: حتى تقسم[3]، فالأمير قد يعطي زيادة بعد القسم لبعض الناس، لبلائه وشدته على الكفار وما أشبه هذا، وقيل: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس، يعني أن الغنيمة تقسم، فأربعة أخماس للمقاتلين، الفارس له سهمان سهم له وسهم لفرسه، وغير الفارس ممن يركب البعير أو الحمار أو البغل أو على قدميه له سهم واحد، الأربعة الأخماس تعطى لهم، والخمس يقسم إلى خمسة أقسام، كقسم الفيء، فهذا القول يقول: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس، وهو المقصود بقوله: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ}** إلى آخره، لكن هذا فيه بعد؛ لأنهم ما تنازعوا في هذا، وإنما حصل النزاع في أصل الغنيمة حينما حصلت لهم، وقيل: هو الفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال، وما شذ منهم إلى المسلمين من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، وقد جعله على خمسة أقسام كما قال الله -عز وجل - في سورة الحشر: **{فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}** [سورة الحشر(٧)]، لكن هذا فيه إشكال؛ لأن الذي اختلفوا فيه لم يكن قد حصل من غير قتال، الذي حصل لهم إنما كان بقتال وانتصار ساحق على الكفار، الفيء نزعه الله -عز وجل - من أيديهم، قال:**{فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}** [سورة الحشر(٦)]، **{مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ}**، يعني ما نافية، ويكون المعنى أي: لم توجفوا عليه، والإيجاف هو الإسراع، **{مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}** يعني لم يحصل لكم فيه قتال للعدو وإغارة؛ لأن الخيل ترمز لهذا، كما في وقعة أحد لما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه -: ((ائتنا بخبر

---

2 - رواه البخاري برقم (١٩٨٣)، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصَّوَّاغ ، ومسلم برقم (١٩٧٩)، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر والبسر والزبيب وغيرها مما يسكر.

3 - رواه الإمام أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي في المصنف في الأحاديث والآثار (٦/٥٠٠)، برقم (٣٣٢٩٢)، كتاب السير، باب في الإمام ينفل قبل الغنيمة وقبل أن يقسم، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، ط١، سنة النشر: ١٤٠٩هـ.

القوم إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهي الغارة على المدينة))[٤]، فالخيل تستعمل للإغارة، والإبل تستعمل للسفر الطويل، فالله -عز وجل- يقول لهم: {مَا أَوْجَفْتُمْ}، أي: ما حصل منكم إيجاف أي إسراع ولا كد ولا تعب بهذا الفيء، لا بإغارة على العدو ولا بسفر طويل، ووقع هذا مع اليهود في بني قريظة، وبني النضير، ووقع لبعض أهل القرى، والفيء ليس للمقاتلين منه شيء، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى الفيء الذي حصل من بني النضير أعطاه جميعاً للمهاجرين؛ لأنه خيّر الأنصار فقال لهم: إن شئتم بقي المهاجرون في أرضكم وقسمته بينكم، يعني ما حصل من بني النضير، وإن شئتم خرجوا من أرضكم وقسمته بينهم؛ لأنهم كانوا فقراء تركوا كل شيء، فقالوا: لا يا رسول الله، يبقون في أرضنا وتقسمه بينهم دوننا، فهذا الذي قال الله -عز وجل- فيه: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر(٩)]، وقال: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا}، والحاجة هي الحسد، {مِّمَّا أُوتُوا} أي: مما أوتيه إخوانهم من المهاجرين، فالفيء يخمس خمسة أقسام كما في آية الحشر، والغنيمة أربعة أخماس للمقاتلين، والخمس يقسم كقسمة الفيء، ومعنى قول علي بن صالح: بلغني في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} قال: هي السرايا، أي: ما ينفِّله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، بمعنى أن الجيش قد ينبعث منه سرية ويحصل لها ظفر، فيعطون زيادة على ما يحصل لهم من أصل الغنيمة التي تحصّل عليها الجيش، وبعضهم قال: المقصود به خمس الخمس، وخمس الخمس يقسم لله وللرسول، والراجح أن سهم الله وسهم النبي -صلى الله عليه وسلم- واحد، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأخذ منه نفقته ونفقة أهله لمدة سنة، والباقي يصرفه في الكراع، وفي المصالح العامة كإعداد الجيش، وشراء السلاح، ومصالح المسلمين العامة، وهذا أيضاً بعيد؛ لأن النزاع كان في أصل الغنيمة، وأسباب النزول الواردة في الآية كثيرة جداً تدور حول هذا المعنى، وابن جرير -رحمه الله- اختار أن المراد به: ما يعطى لبعض الناس زيادة على السهم، وهذا يؤيده بعض الروايات في سبب النزول، قال سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-: " يا رسول الله إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو فهب لي هذا السيف، قال: ((إن هذا السيف ليس لي ولا لك))، فذهبت وأنا أقول يعطاه اليوم من لم يبلِ بلائي، فبينما أنا إذ جاءني الرسول فقال: أجب، فظننت أنه نزل فيّ شيء بكلامي فجئت فقال لي النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنك سألتني هذا السيف، وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي فهو لك))، ثم قرأ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} إلى آخر الآية"[٥]، وكذلك قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه))[٦]، قال بعض أهل العلم: هذا هو المراد، والذي يظهر أن الأنفال هي الغنائم، - والله أعلم -، والخمس للإمام أو للقائد وله النظر

---

4 - المغازي للإمام الواقدي (٢٩٨).

5 - رواه أبو داود برقم (٢٧٤٠)، كتاب الجهاد، باب في النفل، والترمذي برقم (٣٠٧٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأنفال، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٧٨).

6 - رواه البخاري برقم (٢٩٧٣) كتاب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلا فله سلبه من غير أن يخمس وحكم الإمام فيه، ومسلم برقم (١٧٥١)، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

في إعطاء بعض الحوافز مثل أن يقول للناس: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فلـــه ســـلبه، ولـــه أن يعطي فوق السهمان، ويمكن له أن يعطي شخصاً لشدة بلائه زيادة على سهمه، وهذا ما أظنـــه أقــرب -والله تعالى أعلم -.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله - تعالى: وروى الإمام أحمد عن سعد بن مالك -رضي الله تعالى عنه - قال: قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: ((إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه))، قال: فوضعته ثم رجعت قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يُبلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي قال: قلت: قد أنزل الله في شيئاً، قال: ((كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وُهب لي، فهو لك))، قال: وأنزل الله هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} [سورة الأنفال(١)]. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث احتج به من قال: إن الأنفال ليست هي الغنائم، وإنما ما يعطى زيادة على السهم، كما قال ابن جرير -رحمه الله-، وتقدم أقوال العلماء في المراد بالأنفال فمنهم من قال: الغنائم، ومنهم من قال: إنها ما جاء للمسلمين من غير قتال؛ كالفرس يند، والعبد يدركه المسلمون، وما يحصل من غير قتال، ومنهم من يقول: هي ما يعطى للسرايا زيادة على سُهمانهم من الغنيمة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم - يعطيهم فوق ذلك، ومنهم من يقول: هو خمس الغنيمة لأنها تقسم على خمسة أقسام، فهذا الخمس يعطون منه، ومنهم من يقول: خمس الخمس، وسبب النزول في هذا الحديث هو طلب السيف، قال: أعطنيه، فأبى، ثم بعد ذلك أعطاه إياه، وليس في قسم الغنيمة، يقول: فنزلت الآية، ويحتمل أن يكون المراد أنها نزلت بعد هذا كله؛ لأنه ورد فيها أسباب صحيحة متعددة، وأخرى ضعيفة، ومن هذه الأسباب طلب سعد -رضي الله تعالى عنه - للسيف، فهذا مما يعطاه فوق قسم الغنيمة، ووردت أحاديث أخرى تدل على أنهم تنازعوا في أصل الغنيمة، فنزلت الآية، فتكون الآية نزلت في بدر بعدما وقع ما وقع فيما يتعلق بأصل الغنيمة، وكذلك فيما يطلبه بعضهم من العطاء من الغنائم قبل قسمها، وكذلك ما يتصل بالخمس ما شأنه وكيف يُصرف وكيف يتصرف به؟، فالآية نازلة بعد هذه الأمور جميعاً، وقوله -تبارك وتعالى -: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ} [سورة الأنفال(٤١)]، إما ناسخة على قول بعض أهل العلم، أي: جعل الله الغنائم لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم - وليست للمقاتلين في أول الأمر، ثم نسخ بقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ} فخمسها، ويحتمل أن تكون غير منسوخة وإنما هي مبينة لها، ثم بيّن هذا الحكم بقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم} والنسخ لا يثبت بالاحتمال.

---

1 - رواه أبو داود برقم(٢٧٤٠)، كتاب الجهاد، باب في النفل، والترمذي برقم (٣٠٧٩)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأنفال، وأحمد في المسند (١١٧/٣)، برقم (١٥٣٨)، وقال محققوه: إسناده حسن، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٧٨).

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه - قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فقسمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء[2].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنهما - قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله -صلى الله عليه وسلم - لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم -: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله -صلى الله عليه وسلم -، خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [سورة الأنفال(١)]، فقسمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إذا أغار في أرض العدو نفَّل الربع، فإذا أقبل -وكلُّ الناس - راجعاً نفَّل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: ((ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم))[3]، وروى الترمذي وابن ماجه نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن[4].

وقوله تعالى: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه.

قوله: {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [سورة الأنفال(١)]، أي: أصلحوا فيما بينكم، وبعض أهل العلم يقول: {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: ما وقع بينكم من الكلام حينما اختلفتم، {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}، ما وقع بينكم علانية، فكل منكم يقول ويرد ويجادل، هذا يقول: أنا أحق، وهذا يقول: أنا أحق، فيحصل التشاحن، وهذا يقابل ما يقع في سر الإنسان ويقال له: ذات الصدور {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[سورة الأنفال(٤٣)]، فما يقع بين الإنسان وإخوانه يقال: ذات البين، وفسره بعضهم بالوصلة التي تكون بينهم، وهي أقوال متقاربة، وهذه الوصلة هي الرابطة الإيمانية، والأخوة الإسلامية، فتكون نقية من كدر الحقد والغل والغش والشحناء، أي أصلحوا حقيقة ما بينكم.

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ} [سورة الأنفال(١)]، أي: في قسمه بينكم على ما أراد الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: هذا تحريج من الله ورسوله على المؤمنين أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، وكذا قال مجاهد.

---

2 - رواه الإمام أحمد في المسند (٤١١/٣٧)، برقم (٢٢٧٤٧)، وقال محققوه: إسناده حسن لغيره.

3 - رواه أحمد في المسند (٤٢٢/٣٧)، برقم (٢٢٧٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره، وابن ماجه برقم (٢٨٥٣)، كتاب الجهاد، باب النفل، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٣٠٢).

4 - رواه الترمذي برقم (١٥٦١)، كتاب السير، باب في النفل، وابن ماجه برقم (٢٨٥٣)، كتاب الجهاد، باب النفل، وأحمد في المسند (٤٢٢/٣٧)، برقم (٢٢٧٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٣٠٢).

وقال السدي: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} أي: لا تستبوا.

قوله: لا تستبوا، أي: ارفعوا أسباب الشر والخلاف، والشحناء وكل ما يوغر الصدر بين المسلم وأخيه.

قوله: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١)]، هذا يدل على أن صلاح ذات البين من الأمور الواجبة، ولذلك علّقه بالإيمان فقال: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} فافعلوا ما أمرتكم به، ومثل هذا مفهوم المخالفة فيه غير مراد، بمعنى أن الإنسان الذي يكون بينه وبين إخوانه شحناء ليس معنى ذلك أنه ليس بمؤمن، فيكون المعنى إن كنتم مؤمنين حقاً فأصلحوا ذات بينكم، وهذا الأسلوب يستعمل للتحضيض والتحريض، كقولك: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، تريد حثه على هذا الفعل وتحفيزه، وأنت تعلم أنه ابن أبيه.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الأنفال(٢ -٤)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فأدوا فرائضه، {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} يقول: زادتهم تصديقاً، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فرقت، أي فزعت وخافت، وكذا قال السدي وغير واحد، وهذه صفة المؤمن، حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره، كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران(١٣٥)]، وكقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[سورة النازعات(٤٠ -٤١)] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية فيقال له: اتق الله، فَيجل قلبه.

الوجل هو الخوف، أو خوف خاص، وهو خوف مع خشية، وقد يكون واقعاً من العذاب، وقد يكون خوف إجلال وتعظيم، كما قال الله -عز وجل -: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}[سورة المؤمنون(٦٠)]، أي: في حال الإحسان قلوبهم وجلة خائفة مشفقة، يخشون الله -عز وجل -، يخشون أن لا يقبل ذلك منهم، فقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [سورة الأنفال(٢)]، جاء بأسلوب الحصر والقصر، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، وهي من أقوى الصيغ في الحصر، أعلى وأقوى منها النفي والاستثناء نحو لا إله إلا الله، ثم تأتي هذه الصيغة، ومفهومها أيضاً كذلك في القوة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} لكن مفهوم المخالفة غير مراد، ولكن حينما يذكر الله -عز وجل - مثل هذا بأسلوب القصر والحصر {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، فهذا يدل على أن هذا من الصفات الواجبة في الإيمان، أي من الإيمان الواجب، وكذلك إذا نفى الإيمان عنه حيث قال: ((والله لا يؤمن، والله لا

يؤمن، والله لا يؤمن)) قيل: من يا رسول الله؟ قال: ((من لا يأمن جاره بوائقه))[5]، نفى عنه الإيمان، لكن مفهوم المخالفة في هذا الحديث غير مراد، فلا يكفر الإنسان بالمعصية والذنب بمجرد فعله، وإنما هذا يدل على أن هذا الفعل من الإيمان الواجب، أن يكون الإنسان مأمون الجانب لدى الجار، لا يصل إليه منه الشر والسوء والأذى، وإلا فإنه يكون قد نقص من إيمانه الواجب الذي يستحق عليه العذاب، فلا يخلص ولا ينجو عند الله -تبارك وتعالى - حتى يمحَّص أو يغفر له بحسنات ماحية، أو مصائب تصيبه في الدنيا تكفر عنه، لكن هذا من المعاني أو الأمور التي يجب تحقيقها، أو مثلما جاء بأسلوب الحصر: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** [سورة الحجرات(١٥)]، فهذه الصفات كلها من الإيمان الواجب، الذي لا يتحقق إلا به أصلاً، وهناك إيمان واجب يحصل أصل الإيمان به فتحصل النجاة عند الله -عز وجل -، لكن صاحبه يستحق العقوبة حتى يمحص، إلا أن يغفر الله -عز وجل - له، وهناك كمال في الإيمان مستحب، ((الإيمان بضع وستون شعبة: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى))[6].

فقوله: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** أي: خافت وأشفقت، وحصلت لهم الخشية.

وقوله: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[سورة الأنفال (٢)]، **كقوله: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[سورة التوبة (١٢٤)].**

هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، كقول الله -عز وجل -: **{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا}**[سورة المدثر(٣١)]، والنصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جداً في الكتاب والسنة، وحديث "نافَقَ حنظلة" يدل على هذا المعنى، فهو يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم -: إنهم إذا كانوا عنده فإنهم يكونون في حالة من الإيمان عالية؛ كأنهم يرون الجنة والنار، وإذا رجعوا إلى بيوتهم وعافسوا الأزواج والأولاد والضيعات نقص[7]، وكل ما يزيد فهو ينقص ولا بد، فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقوله: زادتهم تصديقاً، ليست الزيادة تصديقاً فقط؛ لأن الإيمان قول واعتقاد وعمل، قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}** [سورة الأنفال(٢)]، أي: زادتهم تصديقاً وانقياداً وإقراراً واعترافاً، فالتصديق يزيد وينقص، وهذا أمر مشاهد، فالإنسان يتفاوت تصديقه في الأمور، فأحياناً يسمع الخبر ويجزم أنه كذب، وأحياناً يسمع الخبر من ناقل آخر ويتردد فيه، وأحياناً يسمع الخبر ممن يثق به ويحصل له به العلم، فإذا جاء مخبر آخر ازداد هذا العلم، فإذا وُجدت قرائن تدل على صدقه ازداد هذا العلم، وهكذا، فالتصديق يزداد وينقص **{زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}**: زادتهم إقراراً وإذعاناً وتصديقاً وانقياداً أيضاً، وكذلك أيضاً

---

5 - رواه البخاري برقم (٥٦٧٠)، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم برقم (٧٣)، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، واللفظ للبخاري.

6 - رواه البخاري برقم (٩)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم برقم (٥٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

7 - رواه مسلم برقم (٢٧٥٠)، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا.

تزيدهم عملاً، فالصلاة إيمان، والزكاة إيمان، وقبول شرائع الإسلام كل ذلك من الإيمان، فكل آية تنزل يصدقون بها، وأنها من عند الله -عز وجل -، فهذا إيمان جديد، وما تضمنته من الأحكام والآداب وما أشبه ذلك يذعنون له ويقبلونه عن الله -عز وجل -، ويعملون به، فهذا أيضاً إيمان، فكل ذلك داخل في زيادة هذا الإيمان، {زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بيّنا ذلك مستقصى في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

هذه المسألة أي: زيادة الإيمان لم يخالف فيها إلا بعض أهل البدع الذين قالوا: لا يزيد ولا ينقص وإنما زيادته ونقصانه بزيادة ونقص متعلقاته فقط، فنفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، وهذا قول باطل وهو مخالف لما استقر في النفوس، وما دلت عليه النصوص؛ ولذلك يقول بعض هؤلاء: إن العلم لا يزيد ولا ينقص، وإنما يزيد بزيادة متعلقاته، وهذا بناء على عقيدتهم الفاسدة، وهكذا تجد مثل هذا الكلام في أصول الفقه، وفي علوم الحديث، حيث يقولون: إن خبر الواحد مطلقاً يفيد الظن ولا يفيد العلم؛ لأن العلم عندهم لا يتفاوت، بناء على أن الإيمان لا يتفاوت، كل هذا مبني على عقائدهم الفاسدة، والله أعلم.

قوله: "كما بيّنا ذلك مستقصى في شرح البخاري ولله الحمد والمنة"، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- شرح البخاري لكنه لم يكمله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [(٢) سورة الأنفال]، أي: لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة الأنفال] ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم - هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [(٢) سورة الأنفال] معنى التوكل أن يفوض العبد أمره إلى ربه ثقة به، فيركن إلى جنابه -سبحانه وتعالى - ولا يرجو غيره ولا يخاف غيره.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [(٢) سورة الأنفال] يفيد الحصر، فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله، ومن هذه الآية وأمثالها من الآيات أخذ طائفة من أهل العلم أن التوكل من الأمور المختصة بالله -عز وجل - ولا يجوز أن يتوجه بها إلى غير الله، فلا يجوز أن يقول العبد: أنا متوكل عليك يا فلان، ولا يجوز له أن يقول: أنا متوكل على الله ثم عليك.

قوله -تبارك وتعالى -: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة الأنفال] في جميع مواضع القرآن حينما يذكر الله -عز وجل - الصلاة ويأمر بها يقول: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ}، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [(٤٥) سورة العنكبوت] ولم يقل: يؤدون الصلاة، فالصلاة المؤثرة المطلوبة التي يثنى على صاحبها هي الصلاة التي يقيمها المصلي، فيأتي بما يجب لها من شروط وأركان وواجبات ومستحبات.

قال: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة الأنفال] "مِن" للتبعيض باعتبار أن الإنفاق لا يكون لكل المال، وإنما يكون لبعضه، وإنفاق جميع المال يختلف بحسب حال الإنسان، فمن الناس من يُقبل منه أن ينفق كل ما يملك

كما قبل النبي –صلى الله عليه وسلم - من أبي بكر –رضي الله عنه - ومن الناس من لا يقبل منه هذا، فالذي ينفق كل ماله ثم يتعلق قلبه بالناس ويتطلع إلى ما في أيديهم لا يجوز له أن ينفق كل ماله، ومن كان إيمانه قوياً وتوكله على الله –تبارك وتعالى - كبيراً ولا يتطلع إلى ما في أيدي الناس فلا بأس أن ينفق جميع ماله.

وقوله: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [(٤) سورة الأنفال] أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

الفصل بين طرفي الكلام بضمير الفصل "هم" يفيد تقوية مدلول هذه الجملة، والإشارة بالبعيد "أُوْلَئِكَ" يشعر بمنزلة المؤمنين وعلوّهم ورفعتهم.

وقوله: {لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ} [(٤) سورة الأنفال] أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنة، كما قال تعالى: {هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(١٦٣) سورة آل عمران]، {وَمَغْفِرَةٌ} أي: يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات.

تنكير المغفرة في قوله: {وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [(٤) سورة الأنفال] دليل على أنها مغفرة عظيمة، وهذا يدل على أن من حقق الإيمان وتوكل على الله -عز وجل - وأنفق في سبيل الله فإن الله -عز وجل - يغفر له الذنوب ويرفع منزلته ودرجته في الجنة، وهذا دليل على أن الحسنات تمحو السيئات، والله -عز وجل - يقول: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[(١١٤) سورة هود] وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم -: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[١].

وقول ابن كثير -رحمه الله -:**"ويشكر لهم الحسنات"**، ليس من معنى المغفرة؛ لأن العبد إذا نادى ربه "يا رب اغفر لي" فإنه يطلب من ربه أن يستره، وأن يقيه شؤم المعصية فلا يعذب عليها، وكلمة الغفر تدل على هذين المعنيين، ومنه سمي المغفر بهذا الاسم؛ لأنه يستر رأس لابسه ويقيه الضرب بالسلاح.

وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء))، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟، فقال: ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))[٢]، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَماً))[٣].

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ *وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

---

1 - رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (٤/٣٥٥)، برقم (١٩٨٧)، وأحمد (٣٥ / ٢٨٤)، برقم (٢١٣٥٤)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣ / ١٠٢).

2 - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (١١٨٨/٣)، برقم (٣٠٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفتها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢١٧٧/٤)، برقم (٢٨٣١).

3 - رواه ابن ماجه (١ / ٣٧)، برقم (٩٦)، والترمذي (٥ / ٦٠٧)، برقم (٣٦٥٨) وأحمد (١٨ / ٤٢٢)، برقم (١١٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١ / ١٦٨).

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [(٥ -٨) سورة الأنفال].

قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال]، فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله -صلى الله عليه وسلم - فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد، رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢١٦) سورة البقرة].

قال السدي: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} لطلب المشركين.

قوله: **{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ}** [(٥) سورة الأنفال] اختلف علماء التفسير في الجالب لهذه "الكاف" التي في قوله: **{كَمَا أَخْرَجَكَ}**، وما الذي شُبِّه بإخراج الله نبيه -صلى الله عليه وسلم - من بيته بالحق.

فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. وقالوا: معنى ذلك أن الله يقول: وأصلحوا ذات بينكم، فإن ذلك خير لكم، كما أخرج الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم - من بيته بالحقّ، فكان خيرًا له، وهذا كلام ابن جرير -رحمه الله - في هذه الآية وقد ربطها بقوله -تبارك وتعالى - **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}** [(١) سورة الأنفال].

وهذا الكلام فيه مغايرة لكلام ابن كثير -رحمه الله - فقد قال: **"ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله -صلى الله عليه وسلم - فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد"**

فمعنى كلام ابن كثير -رحمه الله - أن انتزاع الغنائم من أيديكم وقسم الله -عز وجل - وقسم رسوله -صلى الله عليه وسلم - خير لكم، كما أن إخراجكم لقتال عدوكم وكتب ذات الشوكة لكم على كره منكم خير لكم، فلو خيروا بعد المعركة بين العير والفتح المجيد، لاختاروا النصر والفتح.

وقال بعض أهل العلم: معنى قوله: **{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ}** [(٥) سورة الأنفال] الأنفال ثابتة لكم مثل إخراج ربك لك من بيتك بالحق، أي: خروجاً متلبساً بالحق.

وقال بعضهم: قوله: **{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ}** [(٥) سورة الأنفال] قسم وتقديره والذي أخرجك، والكاف بمعنى الواو، و"ما" اسم موصول بمعنى الذي، وهذا وإن قال به بعض أهل اللغة إلا أنه أبعد من سابقيه وخلاف الظاهر المتبادر، والله أعلم.

وقال بعضهم: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١) سورة الأنفال]، {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [(٥) سورة الأنفال] فلا تدرون العواقب فليس لكم إلا أن تطيعوا وأن تذعنوا وتسلموا، والله -عز وجل- يصرفكم بما فيه الخير.

وقال بعضهم: قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} [(٥) سورة الأنفال]، متعلق بقوله: {لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [(٤) سورة الأنفال] يعني: هذا الوعد ثابت حق للمؤمنين كما أخرجك ربك، وهذا هو اختيار أبي عبد الله القرطبي -رحمه الله-.

ويحتمل أن يكون المقصود التشبيه بحال كراهتهم للتنفيل، ككراهتهم للخروج ابتداءً أو ملاقاة الجيش.

وقولا ابن جرير وابن كثير هما أقرب الأقوال.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: قال السدي: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [سورة الأنفال(٥)] لطلب المشركين، {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [سورة الأنفال(٦)]، قال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعير، ولم تعْلمنا قتالاً فنستعد له، {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [سورة الأنفال(٧)] أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ} [سورة البقرة(٢١٦)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} الصحابة -رضوان الله عليهم- عندما خرجوا من المدينة لطلب العير لم يكن ذلك فيه كراهة، خرج من خف منهم ولم يُلزَم أحد بالخروج، وبقي الكثير منهم في المدينة؛ لأن القتال لم يكن متوقعا، وعبر بالكراهة باعتبار العاقبة وما آل إليه أمرهم من كراهتهم لقتال المشركين، ولقاء ذات الشوكة أي: الجيش -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} أي: يجادلونك في الحق، ثم اختلف أهل العلم في المراد بالذين يجادلون من المقصود بهم؟ فقال البعض: إن الذين يجادلون هم الكفار، يجادلونه في الحق أي: في التوحيد، ولكن هذا بعيد، وإنما المراد المؤمنون؛ لأن الخبر عنهم، فهم الذين جادلوه في الحق وذلك حينما نجت العير وبقي النفير، بقي الجيش، فكان لا بد من المواجهة، فصاروا يجادلون النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحق بعدما تبيّن، يعني تبيّن أن النفير هو الخيار الوحيد الآن، ومن أهل العلم من يقول: {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} أي: تبيّن أنه الشيء الذي أمرتهم به، وهذا يرجع إلى القول الأول، والمقصود بالحق: القتال، ويحتمل أن يكون بعدما تبيّن لهم أنك لا تأمرهم بشيء إلا بعد إذن الله -عز وجل- ووحيه، أو بعدما تبيّن لهم أن إحدى الطائفتين لهم، والأقرب -والله أعلم- {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} أن العير قد نجت وأن النفير هو خيارهم، وأخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ}، هذا ليس من صفة المشركين، وإنما سياق الآيات يتحدث عن المؤمنين.

قوله: {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} قال: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ} يعني العير أو النفير {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} أي: تودون أن غير الجيش والنفير، وهو الغنيمة الباردة

وهي العير التي كانت مع أبي سفيان، فأبو سفيان نجا بالعير عندما ذهب ناحية الساحل، فنجت العير، وقد وصف الله مكانهم حينما قال في هذه الآيات: {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ} [سورة الأنفال(٤٢)] يعني من عدوتي الوادي، فالدنيا هي ما يلي المدينة، الأقرب إلى المدينة، والقصوى من ناحية مكة، وذكر لهم موضع العير فقال: {وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ} يعني ناحية الساحل، وقوله: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ}، الشوكة: السلاح، يقال: طائفة ذات شوكة، ويقال: شاكي السلاح، {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} أي: يريد أن يظهره وأن يعليه وأن ينصر أهله وأتباعه وأن يهزم الكفار ويخذلهم، فالحق ثابت في نفسه، فلا يقال: إن إحقاقه تحصيل حاصل، وإنما المقصود إظهار الحق وإشهاره ونصر أهل الإيمان أهل الحق، وكبت أهل الباطل، {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} [سورة الأنفال(٨)]، ولهذا فسره بعضهم {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ} قالوا: ما وعد به من النصر، وبعضهم يقول: لقاء الكفار؛ لأنه أمر حق، وقد قدره وقضاه فلا بد أن يقع، ولعل الذي ألجأ هؤلاء إلى مثل هذه الأقوال أن الحق ثابت في نفسه، فكيف يكون إحقاق الحق؟، فيقال: ما تقدم من إظهاره وإشهاره ونصر أهله وإذلال الكفر وهزيمة الكفار -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} المراد بالكلمات الآيات المتلوة، وكل ما أنزله على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من كلامه، وكذلك يدخل في كلماته أمره للملائكة وخطابه لهم، ويدخل فيه أيضاً الكلمات التكوينية التي يدبر بها أمر الخليقة، يخلق ويرزق ويعطي ويمنع، فهذا كله من كلماته -تبارك وتعالى- قال الله -عز وجل-: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} [سورة الكهف(١٠٩)]، فقوله: {وَيُرِيدُ اللّهُ} يحتمل أن تكون الآيات المتلوة التي أنزلها في هذا الشأن، يبيّن بها ذلك وما جرى، ويحتمل أن تكون هذه الكلمات هي أمره للملائكة بما أمرهم به من تثبيت المؤمنين وقتل الكافرين، وإمداد أهل الإيمان، ويحتمل أن تكون هذه الكلمات هي الكلمات عموماً، الكلمات الكونية الأزلية، حيث قضى الله -عز وجل- إذلال الكفر وأهله، وكبتهم، وإنزال المَثُلات بهم في الدنيا والآخرة، كما فعل بالمشركين يوم بدر، فهو واقع لا محالة، ولعل هذا أقرب الأقوال -والله أعلم-.

وبعضهم يفسر قوله: {يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} يعني يثبت ما وعد به، ويتحقق ذلك من نصر أهل الإيمان، فالله -عز وجل- وعد وعداً عاماً وأخبر بذلك، ووعد وعداً مشروطاً فقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر(٥١)]، ووعد وعداً مشروطاً: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [سورة محمد(٧)]، {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [سورة المجادلة(٢١)]، فهذه الغلبة لا بد أن تكون، وقد تكون بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان، وهذا غالب ما تأتي له هذه الكلمة (غلبة) في القرآن.

وقال محمد بن إسحاق -رحمه الله- عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم، وقال: ((هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنْفِلكُموها)) فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض

الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً على مكة، وخرج رسول الله صلى الله عليه في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر -رضي الله تعالى عنه - فقال فأحسن، ثم قام عمر -رضي الله تعالى عنه - فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [سورة المائدة(٢٤)] **ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد -يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم - خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((أشيروا علي أيها الناس)) وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: ((أجل)) فقال: "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فو الذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسرْ بنا على بركة الله، فسُرّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: ((سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم))[1]. ورواه العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - نحو هذا، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.**

وقوله أي ابن كثير -رحمه الله -: برك الغماد، يقال: بَرْك وبِرك، والغِماد والغُماد، قال: يعني مدينة الحبشة، لكن المشهور خلاف هذا، بعضهم يقول: موضع باليمن، وبعضهم يقول: تحت مكة بخمسة ليال، وهذا كله يقال له: يمن، ما عن يمين الكعبة، هذا هو المشهور، وحينما تذكر هذه لا يعني أن الوصول إليها في غاية الصعوبة، وأنه أمر شاق جداً، وإنما قد يذكر الإنسان الشيء الذي لا عهد له به وفي ظنه أنه بعيد فيقول: لو سرت بنا إلى كذا، يعبر بهذا لينبئ ويفيد السامع بالقبول والاستجابة والمتابعة والطاعة، تقول مثلاً: لو سرت بنا إلى اليمن، أو لو أردت أن أحملك إلى مكة، يقصد أنه لا يتردد في فعل ذلك.

---

1 - انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢/١٤)، وصححه الألباني في فقه السيرة (٢٢٣).

وقوله: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} دابر الشيء: هو آخره، وقطْع دابرهم يعني استئصالهم، تقول: قطع الله دابرهم يعني استأصلهم، ويقول: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ} وتقدم قوله: {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ} فالحق في الموضع الأول {وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ} لبيان إرادته -سبحانه وتعالى-، وأنها تختلف عن إرادتهم، فهذا الحق في هذا الموضع فسره بعضهم بتحقيق ما وعد به المؤمنين من النصر، وفسره بعضهم بلقاء الكفار - المواجهة مع الجيش وليس تحصيل العير - والحق في الثانية قال: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} اللام هذه للتعليل، فهو تعليل لإرادته، فهم يريدون العير، والله يريد أن يحق الحق بالنفير وكبت الكفار وقطع دابر المشركين، {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} بإعزاز الشريعة وإعلاء كلمته -سبحانه وتعالى-، وفسره بعضهم بالنصر يعني الحق الثاني {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} فهذا تعليل لما يريده، أي أنه يريد ذلك بإحقاق الحق، لإظهاره ووضع الباطل وكبت أهله، وليس هو من التكرار؛ لأن القرآن ليس فيه تكرار محض.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال(٩ - ١٠)].

قال البخاري في "كتاب المغازي" باب قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[سورة الأنفال(١٣)][1]، ثم روى عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال موسى {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا} [سورة المائدة(٢٤)] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- أشرق وجهه وسرّه -يعني قوله"[2].

ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر: ((اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد)) فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ((سيهزم الجمع ويولون الدبر))[3]، ورواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}** الاستغاثة هي طلب الغوث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يهتف بربه ويسأله النصر، ويقول: ((اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض))[4]، فقوله: **{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ}** بالجمع، يحتمل أن يكون قال ذلك على سبيل التعظيم، ويقصد به النبي -صلى الله عليه

---

1 - صحيح البخاري (٤/١٤٥٥).

2 - رواه البخاري برقم(٣٧٣٦)، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

3 - رواه البخاري برقم (٣٧٣٧)، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} إلى قوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٥٧)، باب قوله تعالى: {سيهزم الجمع ويولون الدبر}.

4 - رواه مسلم برقم(١٧٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

وسلم -، ويحتمل أيضاً أن يكون الصحابة أمّنوا على دعائه، والمؤمّن داعٍ، كما قال الله -عز وجل - لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام -: **{قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا}** [سورة يونس (٨٩)]، والذي كان يدعو موسى، ويحتمل أن يكون الصحابة دعوا، وهذا جاء في بعض الروايات في السير، أنهم كانوا يتضرعون إلى الله -عز وجل - ويسألونه النصر، وهذا أمر يقع عادة من أهل الإيمان، وإن لم يُنقل، **{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}** وفي سورة آل عمران قال الله -تبارك وتعالى -: **{بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ}** [سورة آل عمران(١٢٥)]، وقال قبلها: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ}** [سورة آل عمران(١٢٣ -١٢٤)]، من أهل العلم من فهم أن هذه الآية في غزوة بدر لأن الله قال: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ}** أي: واذكر إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم، يعني في بدر، ثم بعد ذلك **{بَلَى إِن تَصْبِرُواْ}** بشرط الصبر والتقوى يزيد المدد فيصل إلى خمسة آلاف، فقالوا: قال الله -عز وجل - في أول الأمر -: إنه ممدهم بألف مردفين، في القراءة الأخرى قراءة نافع **{مُرْدَفِينَ}** يعني أنهم يردفون بغيرهم من الملائكة، فألف إذا أردفوا بغيرهم صاروا ثلاثة آلاف، ثم بعد ذلك يصيرون خمسة آلاف، وقالوا: هذا وجه الجمع بين الآية في سورة الأنفال هذه **{أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ}** [سورة الأنفال(٩)] وآية آل عمران، ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية في غزوة بدر كما هو السياق **{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم}** وسياق هذه الآية **{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ}** [سورة آل عمران(١٢١)] في يوم أحد قطعاً، فسورة آل عمران تتكلم عن غزوة أحد **{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ}** [سورة آل عمران(١٢١ - ١٢٤)]، قالوا: هذا في أحد، وليس في بدر، وقوله تعالى: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}** هذه جملة للتذكير، ثم رجع السياق في أحد، **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** قالوا: هذه جاءت للذكرى، ثم رجع الكلام عن غزوة أحد **{إِذْ تَقُولُ}** في غزوة أحد **{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ}** [سورة آل عمران(١٢٤)] هذا في أحد **{مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ}** [سورة آل عمران(١٢٤ -١٢٥)]، أي مُعلّمين بعلامات يعرفون بها، ثم قال في آل عمران: **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ}** [سورة آل عمران(١٢٦)] إلى آخره، قال به طائفة من أهل العلم، قالوا: تلك في أحد، وهذه الآية في غزوة بدر، وذكْر بدر كان للتذكير فقط في سياق آيات أحد، وإلا فالكلام في سورة آل عمران في غزوة أحد، والملائكة نزلوا في غزوة أحد، وإن اختلف العلماء في قتال الملائكة، هل قاتلوا في كل الغزوات أو لا؟ والراجح الذي عليه المحققون أنهم قاتلوا في غزوة بدر، ويدل على هذا أدلة، ولم ينزلوا فقط للتثبيت، وأنهم في غزوة أحد

نزلوا ولكنهم لم يقاتلوا، وكذلك زلزل جبريل بني قريظة[5]، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما - أن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال يوم بدر: ((هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب))[6] فجاءت الملائكة أيضاً في غزوة الخندق، وقال الله -عز وجل -: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [سورة الأحزاب(٩)]، وفي حنين أيضاً ذكر بعض أهل العلم أن الملائكة أيضاً نزلوا ولكنهم لم يقاتلوا، {ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [سورة التوبة(٢٦)]، حينما قال: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}[سورة التوبة(٢٥ - ٢٦)] هذا في غزوة حنين.

وقوله تعالى: {بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} أي: يردف بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {مُرْدِفِينَ} متتابعين.

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: وأمد الله نبيه -صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة.

إي مجنبة، يعني على جانب الجيش، الميمنة يقال لها: مجنِّبة، والميسرة يقال لها: مجنِّبة.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم عن ابن عباس عن عمر -رضي الله تعالى عنهم - حديثاً فيه: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: "أقدم حيزوم"، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه وشُق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة))[7].

هذه الأدلة صريحة في الدلالة على أن الملائكة باشرت القتال مع المسلمين يوم بدر، وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا يعرفون من قتل على يد الملائكة من المشركين بأنه يضرب كضربة السوط فيخضر، وكان الرجل يتبع المشرك، فيسقط قبل أن يصل إليه السيف، بعضهم رأى رجالاً على خيل، وبصفة لم يشاهدها ولم تكن معهم في عسكرهم، فكل هذا يدل على أن الملائكة باشرت القتال معهم، وأما باقي الغزوات فلا يوجد دليل بهذه الصراحة يدل على أن الملائكة باشروا القتال، ولو باشروه يوم أحد لما انهزم المسلمون، و"حيزوم" اسم فرس الملَك.

فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين، وقال البخاري: باب شهود الملائكة بدراً[8]، ثم روى رفاعة بن رافع الزرقي -رضي الله تعالى عنه - وكان من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - فقال: ((ما تعدون أهل بدر فيكم؟))، قال: ((من أفضل المسلمين)) أو كلمة نحوها، قال: ((وكذلك من شهد

---

5 - انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٧٤).

6 - رواه البخاري برقم (٣٧٧٣)، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

7 - رواه مسلم برقم (١٧٦٣)، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

8 - صحيح البخاري (٤/١٤٦٦).

بدراً من الملائكة))[٩]. انفرد به البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج -رضي الله تعالى عنه -[١٠] وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله أعلم.

وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: ((إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))[١١].

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى} الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ}، كما قال تعالى: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [سورة محمد(٤ -٦)]، وقال تعالى: {وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران(١٤٠-١٤١)]، فهذه حكَم شرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ} [سورة القصص(٤٣)]، وقتْل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} [سورة التوبة(١٤)]، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب -لعنه الله - بالعَدَسة، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه.

العَدَسة، مرض بذرة مثل العدسة، مثل البذور في الجسم، تعدي بإذن الله -عز وجل -، ويموت صاحبه مثل الطاعون، ولذلك يقولون: إنهم رموا عليه الحجارة لأنهم خافوا أن يقتربوا منه عندما رأوا جسده.

كما مات أبو لهب -لعنه الله - بالعَدَسة، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ} أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة

---

9 - رواه البخاري برقم (٣٧٧١)، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

10 - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٧٧)، برقم (٤٤١٢).

11 - رواه البخاري برقم (٢٨٤٥)، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، ومسلم برقم (٢٤٩٤)، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم -، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم - وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

غافر(٥١)] {حَكِيمٌ} فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته -سبحانه وتعالى -.

قوله -تبارك وتعالى -: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى} أي: نزول الملائكة، والبشرى غالباً تستعمل في الخبر الذي تطمئن إليه النفوس، وتُسرّ به، وقيل له ذلك: لظهور أثره أحياناً على بشرة المبشَّر، يظهر أثر السرور والفرح والبهجة {إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} [سورة الأنفال(١٠)]، وهذا الذي أخذ منه بعض أهل العلم ممن قال: إنهم لم يقاتلوا، وإن الله حصر العلة في نزولهم بهذا، قال: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى}، فهي مجرد بشرى لطمأنينة القلوب، وقال -عز وجل -: {فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [سورة الأنفال(١٢)]، قالوا: هذا الخطاب للمؤمنين وليس للملائكة، حتى تفهم وجه الاحتجاج، قالوا: إن الملائكة لم تقاتل، وإن نزولهم للتبشير والطمأنينة، وقوله: {فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}، للتثبيت، وقوله : {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ}، تعليم من الله عز وجل للمؤمنين مواضع النكاية وكيف يفتكون ويثخنون في العدو، وهذا ليس بحجة في أن الملائكة لم تقاتل، {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى} أي: أن نزولهم بشرى للقتال مع المؤمنين للتثبيت والبشرى والطمأنينة، وليس الملائكة الذين يقلبون كفة المعركة، ويتحقق النصر على أيديهم إطلاقاً، فالنصر من الله -عز وجل -: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} [سورة آل عمران(١٢٦)]، فالكفار عددهم ألف، وأهل الإيمان ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، بل حتى في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم - الروم جمعوا مائتي ألف لقتال المؤمنين، فعددهم لا يساوي شيئاً مقابل الكفار، ولكن النصر من الله -عزوجل -، فالله -عز وجل - يبتلي الناس على قدر ما عندهم من إمكانات، وما أعطاهم من قدر، فتجد ثلاثمائة وستة عشر أو سبعة عشر أو أربعة عشر، يقابلهم ألف، والآلات: رماح وسنان وسيوف ودروع ونحو ذلك.

ونزول ألف من الملائكة، والكفار عددهم ألف، والملَك الواحد يمكن أن يقلب الأرض عليهم قلباً، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما -، عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام))[١٢] سبعمائة سنة، هذه المسافة لملك واحد، وجبريل من أعظم الملائكة له ستمائة جناح، وهو وميكائيل معهم، فلا يساوي أبو سفيان ولا أبو جهل ولا جيشهما شيئاً أمام واحد منهم، لكن الله -عز وجل - يعلم خبايا النفوس، وما ركبت عليه وجبلت عليه، فإذا جاء هؤلاء الخبرَ الصادق أنه قد تنزل الآن ألف من الملائكة تقوى النفوس ويصبح الإنسان مقداماً لا يبالي بشيء، يضرب في الكفار بسيفه، وترتفع المعنويات، وإلا فالله -عز وجل - يمكن أن يرسل إليهم ملكاً، ويمكن أن ينزل المطر عليهم فينشغلون بأنفسهم، فلا يستطيعون القتال ولا المشي ولا الحركة، فكيف بنزول الملائكة؟، فهذه أمور يجب على الإنسان أن يتأملها ويتعقلها، {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} إذا كان هؤلاء الملائكة لا يملكون النصر، فكيف بالبشر؟، فلا يلتفت إليهم ولا يركن إليهم، ولا يحسن الظن بأعداء الله أن ينصروه، ففي هذا عبرة بالغة، والله المستعان.

---

12 - رواه أبو داود برقم (٤٧٢٧)، كتاب السنة، باب في الجهمية والمعتزلة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠/١)، برقم (١٥١).

فائدة:

قال الله تبارك وتعالى - في سورة آل عمران: **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ}**، وفي آية الأنفال **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى}**، بدون لكم، وقال: **{ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}**، وفي سورة آل عمران قال: **{وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ}**، وقوله: **{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [سورة آل عمران(١٢٦)]، وقال: **{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [سورة الأنفال(١٠)]، هذا الفن يسمى المتشابه اللفظي، وتكلم عليه بعض العلماء في كتب خاصة مثل كتاب ملاك التأويل للغرناطي، وكتاب درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، والبرهان للكرماني وغيرها، وبعض ما يذكرون لا يخلو من تكلف -والله تعالى أعلم -.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه - في تفسير قوله تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ}[(١١ - ١٤) سورة الأنفال] يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً، آمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] الآية، قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف.

وروى الحافظ أبو يعلى عن علي -رضي الله عنه - قال: "ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح"[1].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه - أنه قال: "النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان"[2].

وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب، قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، وكما قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [(٥ - ٦) سورة الشرح]، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق -رضي الله عنه - وهما يدعوان أخذت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - سنة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال:

---

1 - رواه الإمام أحمد (١/١٢٥) ، برقم (١٠٢٣) وأبو يعلى (١/٢٤٢)، برقم (٢٨٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إباحة بكاء المرء في صلاته إذا لم يكن ذلك لأسباب الدنيا (٦/٣٢)، برقم (٢٢٥٧)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الدليل على أن البكاء في الصلاة لا يقطع الصلاة مع إباحة البكاء في الصلاة (٢/٥٢)، برقم (٨٩٩).

2 - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩ / ٢٨٨)، برقم (٩٤٥١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢ / ٤٩٩)، برقم (٤٢١٩).

((أبشر يا أبا بكر فهذا جبريل على ثنايا النقع..))[3]، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [(٤٥) سورة القمر].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ}** [(١١) سورة الأنفال] وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو **{إذ يغشاكم النعاسُ}** وعلى هذه القراءة يكون النعاس فاعل.

أما قراءة **{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ}**، أي: أن الله يعشيكم النعاس، وقد نقل عن قتادة –رحمه الله - أن النعاس في الرأس والنوم في القلب، والنعاس هو مقدمة النوم وما يعتري الإنسان من الضعف الطبيعي بحيث لا يغيب عن الإدراك بالكلية، ومن أهل العلم من يقول: السِّنة في الرأس والنعاس في العين، والنوم في القلب.

وفي حالة الحرب والخوف يذهب النوم من الإنسان من شدة الفزع، لكن الله –تبارك وتعالى - نزَّل على عباده المؤمنين النعاس أمنة منه فحصل لهم بذلك طمأنينة القلب وارتفاع عوارض الخوف والفزع، وحصل لهم راحة الجسد.

فالنعاس في الحرب أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقد قال بعض السلف فيمن ينام في مجالس العلم: ذاك حمار في مسلاخ إنسان.

قال: **"وهم تحت الحجف"**، الحجف هي تروس يستظلون بها من المطر.

وقوله: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء} [(١١) سورة الأنفال]. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: نزل النبي -صلى الله عليه وسلم - حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين المال رملة دعصة، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشطيان وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه -صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مجنِّبة وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة، وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي -رحمه الله -: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، طابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم.

وقوله: {لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ} [(١١) سورة الأنفال]، أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر، {وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} [(١١) سورة الأنفال] أي: من وسوسة وخاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}

---

[3] - دلائل النبوة، للبيهقي (٣ / ٥٤)، ورواه البخاري من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما - قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم - يوم أحد ((هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب))رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا (١٤٦٨/٤)، برقم (٣٧٧٣) .

[(٢١) سورة الإنسان] **فهذا زينة الظاهر، {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [(٢١) سورة الإنسان] أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته، {وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [(١١) سورة الأنفال] أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن، {وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[(١١) سورة الأنفال] وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.**

قوله: **{وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}** [(١١) سورة الأنفال] ذكرت هذه الآية فوائد نزول المطر على المجاهدين، فقوله: **{لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ}** أي: الطهارة من الجنابة، فقد أجنب بعض الصحابة –رضي الله عنهم - فاحتاجوا إلى الماء، فوسوس إليهم الشيطان، كيف تزعمون أنكم على حق ولم تجدوا الماء؟ وكيف تلقون عدوكم غداً على غير طهارة؟

قال –تبارك وتعالى -: **{وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ}** [(١١) سورة الأنفال] أصل الرجز العذاب، فالشيطان يلقي الوساوس والخواطر وهي تزعج الإنسان وتقلقه ويصل الأمر بالبعض إلى حد أنهم يتمنون الخلاص من هذه الحياة، لشدة ما يجد، ومن الناس من يجلس من صلاة العصر إلى آذان المغرب في دورة المياه يعيد الوضوء، وبعضهم وصل به الأمر إلى حالات انهيار وبكاء، فهم في عذاب وشقاء بسبب الشيطان.

قوله -عز وجل -: **{وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ}** [(١١) سورة الأنفال] أي: ترتفع عنهم خواطر السوء، وتطمئن القلوب ويربط عليها حتى يصير الثبات غالباً ومهيمناً عليها، ولهذا عبر بعلى ولم يقل: وليربط قلوبكم.

قال: **{وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}** [(١١) سورة الأنفال] الضمير يرجع إلى المطر الذي نزل، مع أنه يحتمل أنه يرجع إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى الربط على القلوب يكون سبباً لتثبيت الأقدام، وذلك أن القلب إذا حصل له الثبات ثبت القدم في أرض المعركة فلا ينهزم الإنسان، وإنما ينهزم لضعف قلبه، وغلبة دواعي الخوف عليه، والراجح –والله أعلم - أن الضمير يرجع إلى المطر فقد كان سبباً في تثبيت الأقدام في ساحة القتال.

وقوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٢) سورة الأنفال] وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه -تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينه أن يثبتوا الذين آمنوا.

وقوله: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ} [(١٢) سورة الأنفال] أي: ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم، بذلك سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي، {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال]، أي: اضربوا الهام، فَفَلِقوها، واحتزوا الرقاب، فَقَطَعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم، وقوله: {فَوْقَ الأَعْنَاقِ} [(١٢) سورة الأنفال] قيل معناه: اضربوا الرءوس، وقيل معناه {فَوْقَ الأَعْنَاقِ} أي: على الأعناق، وهي الرقاب. قاله الضحاك وعطية العوفي، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [(٤) سورة محمد]، وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: {وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] قال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة، وقال العوفي عن ابن عباس،

فذكر قصة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرّفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى، فأوحى الله إلى الملائكة {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين -يعني قتيلاً -، ولهذا قال تعالى: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله} أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتّباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين.

{وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٣) سورة الأنفال] أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء -تبارك وتعالى - لا إله غيره ولا رب سواه {ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} [(١٤) سورة الأنفال] هذا خطاب للكفار، أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

قوله -تبارك وتعالى -: **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}** [(١٢) سورة الأنفال] أي: مع الملائكة.

قوله: **{فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}** [(١٢) سورة الأنفال] جاء في بعض الروايات أن التثبيت كان بتكثير السواد، فكان أهل الإيمان يرون رجالاً لا يعرفونهم ويقاتلون معهم، وجاء في بعض الروايات أنه كان يأتي الواحد من الملائكة إلى الرجل من المسلمين فيقول: سمعت هؤلاء يقولون: إنهم لو عزموا وشدوا علينا شدة لانهزمنا، فيقوى عزمه، ويقدم على القتال.

ومما هو معلوم أن الشيطان له لِمّة على قلب ابن آدم، وقد أذهبها الله -تبارك وتعالى - وبقيت لِمّة المَلَك فثبت أهل الإيمان.

وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم - أصحابه بأنه رأى جبريل -عليه الصلاة والسلام - في خمسمائة من الملائكة، وميكائيل في خمسمائة من الملائكة، وحدد -صلى الله عليه وسلم - قبل المعركة مصارع الكفار، فكل مثل هذه الأشياء تجعل الإنسان يقدم على عدوه غير هيّاب.

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة *** يرى غمرات الموت ثم يخوضها

قال -عز وجل -: **{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ}** [(١٢) سورة الأنفال]، الرعب: هو الخوف الشديد الذي يملأ القلب، والإنسان الخائف لا يثبت في أرض المعركة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[٤]، وهذا لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم - بل لأتباعه من بعده حظ من ذلك على قدر ما عندهم من الاتباع والإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، فيخافهم أعداؤهم ويرهبون منهم على قدر ما عندهم من الاستقامة.

قال ابن كثير -رحمه الله - في قوله:**{فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ}** [(١٢) سورة الأنفال]: **"أي: اضربوا الهام، فَفَلَقوها، واحتزوا الرقاب، فَقَطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم"** وهذا من أحسن ما فسرت به هذه الآية، فقد جمعت عبارة ابن كثير المعاني التي قالها السلف وهي التي تحتملها الآية، فالعنق،

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم - جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (١٦٨/١)، برقم (٤٢٧)، ورواه مسلم، كتاب المساجد، (٣٧٢/١)، برقم (٥٢٣).

هي الرقبة، والله -عز وجل- يقول: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [(٤) سورة محمد]، وقال بعض السلف: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} أي: اضربوا رءوسهم، ويحتمل أن يكون: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} بمعنى اضرب على العنق، ويحتمل أنه علمهم مواضع القتل الذريع والفتك الشديد بحيث إذا ضرب ذلك الموضع بالسيف طار الرأس، وذلك في أعلى الرقبة تحت العظم الذي تحت الأذن، وعبارة ابن كثير قد جمعت بين كل هذه الأقوال، وهو اختيار ابن جرير.

والخطاب في قوله: {فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ} يحتمل أن يكون موجهاً للمؤمنين، ويكون المعنى: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا أيها المؤمنون فوق الأعناق، والأقرب -والله أعلم- أن الخطاب للملائكة.

قوله: {وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال] البنان: هي الأطراف، فإذا قطعت الأطراف انشلت حركة الإنسان، ولا يستطيع أن يقاتل.

قال -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٣) سورة الأنفال]، شاقوا أي: خالفوا الله ورسوله فصاروا في شق، فتركوا أمره وشرعه ودينه وحاربوا أولياءه، ثم جاء بالحكم العام {وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٣) سورة الأنفال].

قوله: {ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} [(١٤) سورة الأنفال] أي: ذوقوا العذاب والنكال في الدنيا من قتل وضرب للأعناق، وتقطيع الأطراف.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٥ -١٦) سورة الأنفال].

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً}: أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، {فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} أي: تفروا وتتركوا أصحابكم، {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ} أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير والسدي، وقال الضحاك: أي يتقدم على أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها.

{أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ}، أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة، قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيز إليّ لكنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال: لما قتل أبي عبيد قال عمر: أيها الناس أنا فئتكم، وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر: أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثنا حسان بن عبد الله المصري، قال: حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي قال: حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر، قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة

إمامنا أو عسكرنا؟، فقال: إن الفئة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقلت: إن الله يقول: {إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً} الآية، فقال: إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: {أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ} المتحيز الفار إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر؛ لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات))[5] ولهذا قال تعالى: {فَقَدْ بَاء} أي: رجع {بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ} أي: مصيره ومنقلبه يوم معاده جهنم وبئس المصير.

قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} [(١٥) سورة الأنفال]** الزحف: هو الدنو شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، وقيل ذلك للجيش؛ لأن العدد الكثير إذا رأيتهم من بعيد كأنهم وقوف لا يتحركون، وحركتهم بطيئة جداً.

وقوله: زحفاً: يمكن أن يكون حالاً من الكفار، يعني إذا لقيتم الذين كفروا زاحفين، ويمكن أن يكون حالاً من المؤمنين، ويكون المعنى: إذا لقيتم الذين كفروا في حال كونكم زاحفين إليهم، ويحتمل أن يكون حالاً من الفريقين، يعني متزاحفين، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله -.

قوله -تبارك وتعالى -: **{فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ}** [(١٥) سورة الأنفال] هذا نهي، والنهي للتحريم، ويدل على أن الفرار من الزحف من كبائر الذنوب، ويدل على ذلك ما ذكر في قوله -تبارك وتعالى -: **{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(١٦) سورة الأنفال] وتولية الدبر كناية عن الانهزام؛ لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه، ولهذا يفتخر الشجعان والأبطال بأن دماءهم لا تسيل على ظهورهم، وإنما على أقدامهم، كما قال ابن الزبير -رضي الله عنه - لما شج وجهه -ضُرب بالمنجنيق وأصاب بعض السواري في المسجد الحرام، فأصيب وجهه -رضي الله تعالى عنه - فنزل الدم على قدميه، فتمثل بهذا البيت:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا * * *ولكن على أقدامنا تقطر الدم

وذهب طائفة من أهل العلم -وهو منقول عن عمر وابن عمر وأبي هريرة -رضي الله عنهم - وجماعة كبيرة من التابعين وبه قال أبو حنيفة - إلى أن الفرار من الزحف كان محرماً في يوم بدر خاصة، وكان عمر -رضي الله عنه - يقول: أنا فئة كل مؤمن، والله -عز وجل - يقول: **{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(١٦) سورة الأنفال] وعمر -رضي الله عنه - كان في المدينة، والفتوح كانت في العراق وفي الشام.

---

[5] - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء] (١٠١٧/٣)، برقم (٢٦١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٢/١)، برقم (٨٩).

واحتجوا أيضاً بحديث عن ابن عمر -رضي الله عنهما - قال: بعثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في سرية فحاص الناس حيصة فقدمنا المدينة فاختبينا بها وقلنا هلكنا، ثم أتينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقلنا: يا رسول الله، نحن الفرارون، قال: ((بل أنتم العكّارون وأنا فئتكم))[٦] والعكَّار: هو الذي يرجع مرة ثانية إلى عدوه.

واستدلوا بقوله: **{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ}** قالوا: إن هذه الآية مختصة بيوم بدر، وقالوا: إن المسلمين إذا انهزموا ليس لهم مكان يتحيزون فيه وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض))[٧]، أما بعد النبي -صلى الله عليه وسلم - فيأتون إلى الإمام.

وهذا فيه نظر، فالمسلمون كانوا في المدينة وكثير من الصحابة لم يخرجوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم - والذي عليه الجمهور من أهل العلم: أن الفرار من الزحف من الكبائر، ولا يجوز ذلك، وقد ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم - من السبع الموبقات.

وليس المقصود بقوله -تبارك وتعالى -: **{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ}** يوم بدر، بدليل أن الآيات نزلت بعد عزوة بدر، فالراجح -والله أعلم - أنه لا يجوز الفرار من الزحف إلا إذا كان الكفار أكثر من ضعف المسلمين، قال -تبارك وتعالى -: **{إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا}** [(٦٥) سورة الأنفال] ثم قيَّد هذا الحكم بقوله -تبارك وتعالى -: **{الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ}** [(٦٦) سورة الأنفال]

وقد قال عمر -رضي الله عنه - في يوم الجسر: "لو انحازوا إليّ لكنت فئتهم"، وكان قائدَ المسلمين في يوم الجسر أبو عبيد الثقفي، وكان النهر بين المسلمين وبين الفرس، فجاء خطاب من قائد الفرس يستفز فيه أبا عبيد، فعبر أبو عبيد مع الجيش الجسر، فاستشهد أبو عبيد وحصل قتل ذريع في المسلمين، وتفرق الناس وانهزموا، وانقسموا إلى أقسام، منهم من ذهب ولم يستطع الرجوع إلى المدينة حياءً من الله وخوفاً، ومنهم من جمع الفلول من أجل مواجهة جديدة، فقال عمر هذه المقولة: "لو انحازوا إليّ لكنت فئتهم"، وقد كان بإمكان المسلمين أن ينسحبوا؛ لأن عدد الكفار أضعاف المسلمين.

وقد انحاز خالد بن الوليد -رضي الله عنه - بالجيش في يوم مؤتة؛ لأن جيش الروم كان مائة ألف وكان عدد جيش خالد ثلاثة آلاف.

---

[6] - رواه الترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف (٢١٥/٤) برقم (١٧١٦)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب التولي يوم الزحف (٤٦/٣) ، برقم (٢٦٤٧)، وأحمد (١٠٠/٢)، برقم (٥٧٥٢)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥ / ٢٧).

[7] - رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٣٨٣/٣)، برقم: (١٧٦٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [سورة الأنفال(١٧ - ١٨)].

يبيّن تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ولهذا قال: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ} أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [سورة آل عمران(١٢٣)] الآية، وقال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}[سورة التوبة(٢٥)]، يُعلم -تبارك وتعالى - أن النصر ليس على كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعُدد، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال تعالى: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [سورة البقرة(٢٤٩)]، ثم قال تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم - أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال: ((شاهت الوجوه))[1] ثم أمر أصحابه أن يصْدُقوا الحمْلة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى} أي: هو الذي بلّغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت.

وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله: {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً} أي: ليُعَرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث: ((وكل بلاء حسن أبلانا))[2].

وقوله: {إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: أي سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

---

1 - رواه مسلم برقم (١٧٧٧)، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين.

2 - رواه النسائي في السنن الكبرى (٦/٨٢)، برقم (١٠١٣٣)، وابن حبان في صحيحه (١٢/٢٢)، برقم(٥٢١٩)، والبيهقي في الشعب (٦/٢١٨)، برقم (٤٠٦٧)،وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/٢٤٢)، للإمام أبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٤، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الشيخ مقبل الوادعي: حسن على شرط مسلم كما في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين برقم (١٣٢٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/٧٦٥).

وقوله: {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم وأنهم وكل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ}** أي: لم تقتلوهم بحولكم وقوتكم وعددكم، وإنما قتلهم الله جل جلاله، وهذا لا إشكال فيه، وأما قوله: **{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي: هو الذي بلّغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت، وهذا تفسير أهل السنة لهذا الآية، بلّغ ذلك إليهم، وليس نفياً ولا يدل ذلك على عقيدة الجبرية، قال: وكبتهم بها لا أنت، فيكون المعنى أن الله -عز وجل- أثبت للنبي -صلى الله عليه وسلم- الرمي، ولكن الذي بلّغ هذه الرمية إلى الكفار ففعلت فعلها هو الله جل جلاله، فالرمي من النبي -صلى الله عليه وسلم- وأثر هذا الرمي من الله، فهذا الرمي الذي رمى به -صلى الله عليه وسلم- **{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى}** ليس ذلك نفياً للرمي من أصله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن نفي لهذا الرمي بهذا الأثر، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخذ حفنة من تراب ثم رماها في وجوههم، فكان ذلك سبباً لهزيمتهم، دخل هذا في عيونهم، ومن أهل العلم كالإمام مالك -رحمه الله- من يقول: إن هذا كان في يوم حنين، وذلك أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا وما بقي معه إلا نحو عشرة، أخذ حفنة من التراب ثم رمى بها وجوههم، وقال: ((شاهت الوجوه)) فما بقي أحد منهم إلا دخل في عينيه من هذا التراب فانهزموا، وهذا وإن كان قد وقع في يوم حنين، إلا أن هذه الآيات تتحدث عن يوم بدر، وهكذا قول من قال: إن المقصود تلك الرمية التي رمى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالحربة حينما ضرب أبي بن خلف في يوم أحد، وكان ذلك سبباً لموته في الطريق حينما كانوا راجعين إلى مكة، أو قول من قال: إن ذلك حينما رمى النبي -صلى الله عليه وسلم- بسهم في يوم خيبر فأصاب به مَن وراء الحصن، أصاب به ابن أبي الحقيق، ولكن هذا في ثبوته نظر، وليست الآيات في هذا، والراجح أن هذا كان في يوم بدر، وسياق الآيات كله في بدر، **{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى}** قال ابن كثير: أي هو الذي بلّغ ذلك إليهم.

قوله: **{وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً}** قال: أي ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، والإبلاء: بمعنى الإنعام، أي: لينعم عليهم ويتفضل عليهم، بإظهارهم على عدوهم، وكبت هذا العدو، وقد استحر القتل فيهم على أيدي أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحصل الظفر، والنصر الكبير، والغنيمة التي حازوها من الكفار، فأبلاه: يقال في الخير، وابتلاه: غالباً في الشر، أو في المكروه، **{وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً}** أي: لينعم عليهم ويتفضل عليهم بحصول هذه الأمور المطلوبة المحبوبة لهم، وقوله: **{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}** يقول: هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد عدوهم فيما يستقبل، والإشارة في قوله: **{ذَلِكُمْ}** يحتمل أن تعود إلى البلاء الحسن؛ لأن الله موهن كيد الكافرين، فهذا الإبلاء هو قتلهم، وهزيمتهم، وإظهار المؤمنين عليهم، **{ذَلِكُمْ}** أي: الإبلاء الحسن، وقيل: إن الإشارة عائدة إلى القتل الذي وقع

والرمي، فقتلهم الله وأوصل التراب حتى دخل في أعينهم؛ من أجل كسرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم، وهذه المعاني صحيحة، ويمكن أن تحمل الآية على الجميع كما قال كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله -، فالقتل الذي وقع وإيصال الرمي بالتراب إليهم وهزيمتهم؛ لإذلالهم وإضعاف قوتهم، وكسرهم، ولهذا قال الله -عز وجل -: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} [سورة التوبة(١٤ - ١٥)] كل هذه الأمور تحصل لمجاهدتهم، وقتالهم ولا شك أن حصول هذه الأمور على أيدي المؤمنين أشفى للصدور.

{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال(١٩)].

يقول تعالى للكفار: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تستنصروا وتستقضوا الله.

تستقضوا الله أي: تطلبون منه القضاء، فالسين والتاء للطلب، تستقضوا الله: يعني تطلبون أن يقضي بينكم وبين عدوكم.

وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير: أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} إلى آخر الآية.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقْطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان المستفتح. وأخرجه النسائي في التفسير، وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وروي نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فقال الله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد -صلى الله عليه وسلم -.

قوله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} السين والتاء للطلب يعني: تطلبوا الفتح، و{الْفَتْحُ} أي: الحكْم، ويقال للحاكم فاتح، ويقال للحكْم أيضاً فتاحة.

فإني عن فتاحتكم غني.

أي: عن حكمكم غني، ويقول بعض العلماء: تسمية الحكْم بالفتح، هذا في لغة حمير، وهي لغة عربية صحيحة جاءت في القرآن، كما قال الله -عز وجل - عن شعيب وقومه: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [سورة الأعراف(٨٩)]، افتح بيننا وبينهم أي: احكم بيننا وبينهم بالحق، وفي نفس القصة ذكر الله -عز وجل - عن شعيب -صلى الله عليه وسلم - قوله: {وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا} [سورة الأعراف(٨٧)]، فالشاهد: {حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا} هذا مفسر لقوله: {افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} يعني احكم بيننا وبين قومنا بالحق، {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} أي: تطلبوا الحكم والقضاء بين الفريقين، فقد جاءكم الحكم، وهو هذه الهزيمة الساحقة، وقتل هؤلاء الصناديد الكبراء، ومن أراد أن يعرف

حقيقة ما جرى في يوم بدر فليقرأ في السيرة مثل سيرة ابن هشام مثلاً، أبداً لا يكاد يخطر في بالك أحد من الكبراء، وإن كنت لا تعرف من هم الكبراء فإذا قرأت أول مسير المشركين إلى بدر فستعرف من هم الكبراء ومن هم المطعمون العشرة، نعم، فلا يمر عليكم اسم من أسماء هؤلاء الكبراء إلا وقد ذكر في القتلى، ومن لم يذكر في القتلى فستجده في الأسرى، شيء هائل، يقف الإنسان عنده متفكراً: كل هذا قد وقع وهو لا يخطر في البال، ولا يدور في الخيال، مع ما هم فيه من التحصن والتحرز والقوة والكثرة والغرور، حتى إن أبا جهل جاء وحوله كوكبة من المدججين بالسلاح، وحتى إنهم ليقولون: إن أبا جهل كالحرجة، من كثرة من يحيط به، -والشجر الملتف الذي له شوك ولا يستطاع التوصل إلى منتهاه أو إلى وسطه يقال له: حرجة - وكل ذلك قد أذهبه الله -عز وجل - وولوا الأدبار، واقرءوا ما قيل في هذا من الأشعار وما قيل في هجائهم، ما قاله حسان بن ثابت -رضي الله عنه - وغير حسان، ذهبوا وتركوا الإخوان والأحباب والقادة والسادة على الأرض ثم سحبوا بعد ثلاثة أيام إلى القليب، حتى ما دفنوا، السادة العظام يسحبون بعد ثلاثة أيام بعدما جيفوا، يسحبون سحباً إلى القليب.

وصح في قوله: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} سبب النزول الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله - في قول أبي جهل حين التقى القوم: اللهم أقطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان المستفتِح، وأبو جهل هو القائد وهو كبيرهم، فيكون ذلك استفتاحاً منهم، استفتاح أبي جهل هو استفتاح من المشركين، ولذلك أضافه إليهم فقال: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ}؛ لأن ذلك جرى على مقدمهم وكبيرهم وقائدهم، فنسب ذلك إليهم، فأحنه معنى الأحن الهلاك والمحْق والاستئصال، فأحنه: امحقه أي: أهلكه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو قوله تعالى إخباراً عنهم: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ} [سورة الأنفال(٣٢)] الآية، وقوله: {وَإِن تَنتَهُواْ} أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله فهو خير لكم، أي في الدنيا والآخرة.

قد يأتي في كتب التفاسير أقوال لا وجه لها إطلاقاً، وهذا دليل على تباين الأفهام، ومن ذلك قول البعض في قوله:{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمْ}، {وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ}: إن بعضها راجع إلى المؤمنين، وبعضها يرجع إلى الكفار، وبعضهم يقول: هذه تتعلق بالمؤمنين يوم أخذوا الغنائم، وإن تعودوا إلى أخذ الغنائم نعد إلى معاتبتكم، يقول الله -عز وجل -: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}، وهذا في غاية البعد، والسياق لا يدل عليه لا من قريب ولا من بعيد.

وقوله تعالى: {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ} كقوله: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا} [سورة الإسراء(٨)] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

قوله: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}، {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ} أي: إن تعودوا إلى قتال المؤمنين، إن تعودوا إلى الاستفتاح، كل ذلك {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ} فعادوا إلى كفرهم وعادوا إلى قتال المؤمنين، وجاءوا في يوم أحد فقتل منهم سبعون في أول المعركة، وهزموا شر هزيمة، وسقط اللواء، وأخذته جارية وحملته، كما قيل في هجائهم:

وعبد الدار سادتهم الإماء.

وفر الرجال والنساء وكان في النساء هند بنت أبي سفيان، شاهدها الصحابة، وهي تشتد في الجبل منهزمة، وما كان دون أخذهم إلا الشيء اليسير، ثم وقع ما وقع من عصيان للنبي -صلى الله عليه وسلم -، فحصل ما حصل من الهزيمة وتغيرت موازين المعركة.

{وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ} أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له.

{وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

هذا أصل كبير ينبغي أن يعقله أهل الإيمان، أن الكفار مهما كانت أعدادهم، لا تغني عنهم ولا تدفع عنهم بأس الله -عز وجل - ولا القتل ولا الهزيمة على يد المؤمنين إن كانوا محققين للإيمان، ولهذا قال: {وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} ولم يقل: وأن الله مع الأوس والخزرج، وإنما ربط ذلك بالإيمان، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فمعيّة الله -عز وجل - للمؤمنين على قدر تحقيقهم للإيمان، فإذا كانوا محققين للإيمان، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة -والله لا يكلف نفساً إلا وسعها - فإنه مهما تمالأ أهل الأرض عليهم، ومهما كان عند العدو من العُدد والعَدد فإن ذلك لا يغني عنهم شيئاً، فالله ينصر أولياءه، والواقع شاهد كبير بهذا، ولم يكن ذلك لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم - فحسب، وإنما لكل تابع لآثارهم ومقتفٍ لطريقتهم وسنتهم، فله من ذلك نصيب.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنفال(٢٠ -٢٣)].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم -، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، {وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه.

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}.

قوله: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} الضمير مفرد وقد ذكر قبله طاعة الله، وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم -، فذكر شيئين وأعاد الضمير بالإفراد، فيحتمل أن يكون الضمير يعود على أحدهما، ويحتمل أن يعود إلى الأخير، كما هي القاعدة: أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، {أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} أي: عن رسوله -صلى الله عليه وسلم -، وهذا القول يمكن أن يرجَّح لأنه أقرب مذكور، ومن جهة أخرى أن الآية قد تحتمل معنيين فأكثر، ويكون أحد القولين متضمناً للقول الآخر أو مستلزماً له، فتحمل الآية عليه أو عليهما، باعتبار الملازمة، فإما أن نرجح ونقول: إنه يعود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - إلى قوله: {وَرَسُولَهُ} باعتبار أنه أقرب مذكور، وباعتبار أن طاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - طاعة لله -عز وجل -، أو يقال: إنه عائد إلى الله -عز وجل - {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ}؛ لأن طاعة الله -عز وجل - هي المقصودة، وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم - تبع لطاعة الله -جل جلاله -، ويحتمل أن يعود الضمير إلى الأمرين، بناء على أن الآية تحتمل معنيين، ويكون أحد المعنيين مستلزماً للآخر، أو متضمناً له، فتحمل

عليهما جميعاً؛ لأن من أطاع الرسول -صلى الله عليه وسلم - فقد أطاع الله، {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} أي: الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطاعته طاعة لله، كما في قوله تعالى مثلاً: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [سورة الفلق(٣)]، الغاسق: القمر، وبعضهم يقول: الليل تنتشر فيه الهوام والسباع والشياطين من شياطين الإنس والجن، وهذان القولان بينهما ملازمة؛ فالقمر يظهر ليلاً فلا يحتاج أن نرجح، وقوله: {وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ} يحتمل أن يكون أصلاً المراد به طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم - ابتداء، ولكنه قد يُذكَر أمران ويعود الضمير إلى أحدهما والمقصود الجميع، وكأحد الأقوال المشهورة في قوله -تبارك وتعالى -: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة(١١)]، أعاد الضمير مفرداً {إِلَيْهَا} ما قال: إليهما، ويمكن أن يفسر بغير هذا، لكن على هذا القول يكون داخلاً ضمن هذا الأصل الذي تقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [سورة الأنفال(٢١)]: وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى بأن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ}[سورة الأنفال(٢٢)]، أي: عن سماع الحق، {الْبُكْمُ} عن فهمه، ولهذا قال: {الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خُلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء} [سورة البقرة(١٧١)] الآية، وقال في الآية الأخرى: {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف(١٧٩)]، وقيل المراد بهؤلاء المذكورين: نفر من بني عبد الدار من قريش، روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - ومجاهد واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهماً فقال: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا}[سورة الأنفال(٢٣)]، أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ولو أسمعهم أي: أفهمهم لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم {وَهُم مُّعْرِضُونَ} عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}** المراد بذلك ما نُقل عن ابن عباس ومجاهد أنهم نفر من بني عبد الدار، قال: واختاره ابن جرير، هذا صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما -، والذي اختاره ابن جرير -رحمه الله -: أن المراد بذلك كفار قريش، واحتج لترجيح هذا القول بالسياق، قال: السياق في هذه الآيات يتحدث عن كفار مكة الذين جاءوا بجيشهم لقتال النبي -صلى الله عليه وسلم -، وقول ابن إسحاق بأن المراد أهل النفاق، لأنهم أظهروا الاستجابة بألسنتهم، والقبول والانقياد ولكن قلوبهم معرضة فهي منطوية على الكفر، وهذا لا شك أن ظاهره يصدق على المنافقين **{قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}**، ولكن قد يستشكل هذا القول باعتبار أن النفاق لم يكن موجوداً في أول الهجرة، ووقت غزوة بدر، وإنما وجد النفاق بعد غزوة بدر، فعبد الله بن أبي لما انتصر المسلمون في بدر سارت لهم قوة وشوكة فقال لأصحابه: هذا أمر قد توجه فأرى أن تدخلوا فيه ظاهراً، أي أظهروا لهم الموافقة، لا تصادموا هذه القوة التي لا تستطيعون الوقوف في وجهها، فبدأ الكيد الخفي، فبهذا يتبين أن قول ابن جرير -رحمه الله هو الراجح، والحافظ ابن كثير

-رحمه الله - حمل الآية على المعنيين، والآية بظاهرها وعمومها تشمل كل من يصدق عليه هذا الوصف، أي كل من أظهر قبولاً وطاعة وانقياداً وهو ليس كذلك.

وقوله: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ} هذا من علمه -تبارك وتعالى - للغيب، وهي كقوله: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة(٤٧)]، وقال أيضاً عن المنافقين الذين تولوا اليهود ووعدوهم بالنصر، أو أن يتحد مصيرهم بمصيرهم فإذا أُخرجوا خرجوا معهم قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر(١٢)]، فعلم ما سيكون والحال التي يكونون عليها لو حصل أمر آخر غير ما وقع، وقال: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ}، فهم يسمعون القرآن ويسمعون دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم - ولكن لا يسمعون سماع فهم، فهم لا يفقهون عن الله -عز وجل -، وكما قال الله -عز وجل - في مواضع عن المنافقين مثلاً وحالهم إذا سمعوا الوحي والقرآن وما ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم - يخرجون ويقولون: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [سورة محمد(١٦)]، {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ} أي: لأفهمهم، ثم قال: {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ} أي: أفهمهم لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً، بعد فهمهم، فهم لا يفقهون، ولو أنهم سمعوا سماع تفهم لما حصل لهم الإيمان لفساد قصدهم، فجمعوا بين عدم الفقه والفهم عن الله -تبارك وتعالى - وفساد القصد، ومن كان بهذه المثابة -أي يجمع بين هذين الأمرين: لا علم له ولا فهم، وليس له قصد صحيح، إنما قصده فاسد - فقد جمع بين أصلي الضلال، فهذا مهما جاءته من الحجج والبينات والبراهين لا يمكن أن يؤمن.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة الأنفال(٢٤)].

قال البخاري: {اسْتَجِيبُواْ} أجيبوا، {لِمَا يُحْيِيكُمْ} لما يصلحكم[1]، ثم روى عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه - قال: كنت أصلي فمر بي النبي -صلى الله عليه وسلم - فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: ((ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ})) ثم قال: ((لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج)) فذهب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ليخرج فذكرت له -وقال معاذ: إن حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم - بهذا - وقال: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة(٢)] هي السبع المثاني[2].

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوّاكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} كثير من السلف حملها على القتال في سبيل الله، فبه تحصل لهم المنعة، وبه يكون حفظ النفوس والأعراض والبلاد والأموال، وبه يكون حفظ

---

1 - صحيح البخاري (٤/١٧٠٣)، كتاب التفسير، باب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}.

2 - رواه البخاري برقم (٤٣٧٠)، كتاب التفسير، باب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}.

الدين، ويكونون أعزة بين الناس، فإذا ضيعوا ذلك ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}**[سورة البقرة(١٩٥)]، وظاهرها العموم، **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** أي في كل ما تحصل به التهلكة، لكن ابن عباس -رضي الله عنهما- فسرها بالامتناع من الإنفاق في الجهاد؛ لأن ذلك يتسبب عنه ضعف المجاهدين فيقوى عليهم عدوهم ويظهر، وإذا ظهر عليهم عدوهم حصل ما حصل من القتل والأسر والاستحواذ على ما في أيديهم، وينشأ عن ذلك أيضاً إضعاف دينهم وفتنتهم وغير ذلك من الأمور التي لا تخفى، وهو معنى صحيح، وإن كانت الآية تشمل هذا المعنى وغيره، لا شك أنه إذا دعاهم إلى القتال والجهاد في سبيل الله أن هذا من الدعاء إلى ما يحييهم، لكن الآية أعم من هذا، ولهذا حملها بعض المحققين كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- على أنها تشمل كل ما فيه الحياة لهم، فيدخل فيه الجهاد في سبيل الله، ويدخل فيه كل ألوان الحياة الحقيقية الكاملة في الدنيا والآخرة، وذلك أن الاستجابة لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم- تحصل به الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة والراحة والنعيم الذي يجده أهل الإيمان بحسب إيمانهم، وبه تتحقق ضروراتهم وتحصل مصالحهم؛ لأنهم إذا لم يستجيبوا لله ولا للرسول -صلى الله عليه وسلم- فإن ذلك يعني ذهاب الدين والعقل، فيتحول الإنسان إلى مشرك عابد لوثن وهذا فساد العقول، وتفسد العقول أيضاً بالخمر والمخدرات وما أشبه هذا، ويكون ذلك سبباً لسلب الأعراض والشرف وضياع النسل، وكثرة أولاد الزنى، ويحصل به أيضاً فساد الأموال، فيأكل الناس أموال بعضهم بالباطل، لا يتحرزون من معاملة محرمة، قصدهم هو الكسب، بأي طريق كان بالقمار والربا والرشى، وغير ذلك، فالضرورات الخمس التي بها الحياة الكاملة لا تتحق، وبهذا تصير حياة الناس أشبه بالحيوانات، فالذي يدخل النار لا يموت فيها ولا يحيى، وأهل الجنة يحصل لهم كمال النعيم، **{اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}** كل ما يأمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو داخل في هذا، ففيه الخير وكرامة الإنسان ورفعته وسعادته في الدنيا والآخرة، وحديث أبي سعيد بن المعلى -رضي الله عنه- الذي ذكره الحافظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعاه وهو يصلي فلما لم يجب احتج عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الآية: **{اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}**، وظاهر سياق قوله: **{إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}**، يعني من طاعة الله -عز وجل- والنبي -صلى الله عليه وسلم- احتج بها على أبي سعيد في الدعاء، أي: إذا ناداكم، كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقصرها على هذا المعنى، فالآية عامة، ومن عمومها الدعاء، فإذا هتف بك يجب عليك إجابته، وقيل: ظاهر السياق: **{إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}** يعني من طاعة الله -عز وجل-، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها، ولهذا يقال بأن الآية قد تنزل في معنى وتُحمل على معنى آخر أخذاً من عمومها، كما في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال لعلي وفاطمة -رضي الله عنهما-: ((ألا تصليان؟))، فقال علي -رضي الله عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء أن يبعثها بعثها، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو يلطخ فخذه ويقول: ((**{وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}**[سورة الكهف(٥٤)]))[3]

---

3 - رواه البخاري برقم (١١٢٧)، كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة، ومسلم برقم (٧٧٥)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح.

فالآية نازلة في معنى أن الإنسان يجادل في البعث والتوحيد والنبوة والوحي، فحملها النبي -صلى الله عليه وسلم - واحتج بها في هذا المعنى، وهكذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً)) وقرأ الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء(١٠٤)] [4]، فذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم - في هذا المعنى الذي هو {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أي: يعاد كما خرج من بطن أمه غير مختون، وليس عليه ثياب، وسياق الآية في الاحتجاج على البعث بالنشأة الأولى، {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة يـــس(٧٩)]، ولما اختلف الخدري والعوفي -رضي الله عنهما - في أول مسجد أسس على التقوى، قال العوفي: قباء، وقال الخدري: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم -، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((هو مسجدي هذا)) فهذا لا ينفي عن قباء، وسياق الآية في قباء، لكن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم - أولى بهذه الصفة، وأكمل من مسجد قباء، والله تعالى أعلم.

فالشاهد من هذا أن الآية قد تنزل في سياق معنى، ويؤخذ من عمومها معنى آخر -والله أعلم -.

وقوله تعالى: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [سورة الأنفال(٢٤)]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً وقال: صحيح ولم يخرجاه[5]، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي.

وفي رواية عن مجاهد في قوله: {يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} أي: حتى يتركه لا يعقل.

وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بما يناسب هذه الآية.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه - قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يكثر أن يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، قال: فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟، قال: ((نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها))، وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من جامعه وقال: حسن[6].

وروى الإمام أحمد عن النواس بن سمعان الكلابي -رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه

---

4 - رواه البخاري برقم (٣١٧١)، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلا}، ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما برقم (٢٨٦٠)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

5 - رواه الحاكم في المستدرك (٢/٣٥٨)، برقم (٣٢٦٥)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنفال.

6 - رواه الترمذي برقم (٢١٤٠)، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وأحمد في المسند برقم (١٢١٠٧)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٨٥).

أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه))، وكان يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، قال: ((والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه))، وهكذا رواه النسائي وابن ماجه[٧].

قوله: {يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} المعاني التي ذكرها الحافظ وغيرها مما نقل عن السلف، يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان، وما ذكر أن الإنسان لا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذن الله -تبارك وتعالى- يحول بينه وبين التوبة، فلا يحصل عليها، يحول بينه وبين قلبه فلا تحصل له الهداية، كل ذلك داخل فيه، ولذلك حملها كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- على أعم معانيها، وأدخل فيها جميع أقوال السلف، فالله -تبارك وتعالى- أملك للقلوب من أصحابها، فهي بين أصبعين من أصابعه، يقلبها ويصرفها كيف شاء، فلا يقدر صاحب قلب على أن يدرك به شيئاً إلا بإذن الله -تبارك وتعالى-، هذا -والله أعلم- من أحسن ما تفسر به الآية، ومناسبة قوله: {أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}، بعد قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم} [سورة الأنفال(٢٤)]، أن الإنسان الذي يُعرض عن الاستجابة فإن ذلك قد يكون سبباً لإزاغة قلبه، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف(٥)]، فهذا من الجزاء الوفاق، والحكم العدل الذي جازاهم الله -تبارك وتعالى- به، فمن أعرض عن الحق فإن ذلك قد يكون سبباً لطمس قلبه، والله يقول: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة(٧٥ - ٧٧)]، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأيما قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، وأيما قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، حتى تصير القلوب على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من مراه))[٨]، الكوز المجخي أي المنكوس المقلوب، فلا يعي قلبه هدىً ولا ينتفع بموعظة، فالقلوب المعرضة عن الله -عز وجل- لا تدخلها الهداية.

{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الأنفال(٢٥)]، يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أي: اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما رواه الإمام أحمد عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟، ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه!، فقال الزبير -رضي الله تعالى عنه-: إنا قرأنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله تعالى عنهم-: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت"[٩].

---

7 - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٧٦٣٠)، واللفظ له، وقال محققوه: إسناده على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٩١).

8 - رواه مسلم من حديث حذيفة -رضي الله عنه- برقم (١٤٤)، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين.

9 - رواه الإمام أحمد في المسند (٣١/٣)، برقم (١٤١٤)، وقال محققوه: إسناده جيد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} يعني: أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم - خاصة، وقال في رواية له عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جداً.

قال كثير من المفسرين: إن هذه في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم -، وإن ذلك وقع لهم في الاقتتال الذي وقع في الجمل وصفين، فهذا مما يدخل في الآية: **{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً}**، فهم داخلون في هذا ولكنها عامة لهم ولغيرهم، فلا تختص بأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم -، ولا يرد على هذا قوله -تبارك وتعالى -: **{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}** [سورة النجم(٣٨)]، بأن الإنسان لا يتحمل تبعة ذنب الآخرين، فإن ذلك محمول على من رأى المعاصي والمنكرات ولم ينكر، فإن العقوبة قد تنزل وتكون عامة، والله -عز وجل - إذا أهلك هؤلاء بعثهم على نياتهم كما دلت عليه النصوص، **{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً}** إذا نزلت العقوبة عمت، إذا كان الشر والمنكر والفساد ظاهراً، والله -عز وجل - ذكر ذلك في الآيات، فقال: **{وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}** [سورة الأنفال(٧٣)]، فهذا الفساد الكبير والفتنة التي تكون في الأرض تعم، الصالح وغير الصالح، يلقون من نتائجها وآثارها السيئة ويعانون ما يعانون، وهذا هو المنتشر في أقطار الدنيا، لم يحقق أهل الإيمان هذا المعنى بأن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً، ولم يتركوا موالاة الكفار فحصل الإخلال بمقتضى هذه الأمور فحصلت الفتنة الكبيرة والفساد الكبير.

ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً} هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن حبيب وغير واحد.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه -: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة التغابن(١٥)]، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن"[10]، رواه ابن جرير.

فالأموال والأولاد لا تخلوا من فتنة بحال من الأحوال، النبي -صلى الله عليه وسلم - كان يخطب على المنبر، فدخل الحسن والحسين وعليهما ثوبان أحمران، يعثران ويقومان فنزل فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: ((صدق الله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}))[11]؛ لشدة تعلق القلب بهم، لكن الفتن منها ما هو مضل ومنها ما هو ليس كذلك، ولهذا روي عن أم سلمة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم - ورضي الله عنها - أنها قالت: يا

---

10 - رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٤٧٥/١٣)، رقم (١٥٩١٢).

11 - رواه الإمام أبو داود من حديث بريدة رضي الله عنه برقم (١١٠٩)، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، والترمذي برقم (٣٧٧٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب مناقب الحسن و الحسين عليهما السلام، والنسائي برقم (١٤١٣)، كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ورجوعه إليه يوم الجمعة، وابن ماجه برقم (٣٦٠٠)، كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٠١٦).

رسول الله، ألا تعلمُني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: ((بلى، قولي: اللهم رب النبي محمدٍ، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا))[١٢]، بدلاً من أن تقول: أعوذ بك من الفتن، لكن قول الإنسان: أعوذ بالله من الفتن لا إشكال فيه؛ لأن هذا ورد كثيراً، فلا يقال: إن هذا من الأخطاء.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم -وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح.

---

12 - رواه الإمام أحمد في المسند (٢٠١/٤٤)، برقم (٢٦٥٧٦)، وقال محققوه: بعضه صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر، وهو ابن حوشب، وبقية رجاله رجال الشيخين، غير عبد الحميد - وهو ابن بهرام -، فقد روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، وهو ثقة، والطبراني في الكبير (٣٣٨/٢٣)، برقم (٧٨٥)، وابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٤/٦)، برقم (٦٦٥٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٤) سورة الأنفال] أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة؟، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا قال: {وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- كما قال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [(١٧- ١٨) سورة التوبة]، وقال تعالى: {وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ} [(٢١٧) سورة البقرة] الآية.

وروى الحاكم في مستدركه عن رفاعة -رضي الله تعالى عنه- قال: جمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قريشاً فقال: ((هل فيكم من غيركم؟)) فقالوا: فينا ابن اختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال: ((حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون))[1] ثم قال: هذا صحيح ولم يخرجاه.

وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} قال: هم محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا.

ثم ذكر -تعالى- ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به فقال: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} [(٣٥) سورة الأنفال] قال عبد الله بن عمر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير. وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وكذا روي عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا.

---

[1] - المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنفال (٢/٣٥٨)، برقم (٣٢٦٦).

وروى ابن جرير عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما - في قوله: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} قال المكاء: الصفير، والتصدية التصفيق.

وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: {وَتَصْدِيَةً} قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله -عز وجل -قال: {فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٣٥) سورة الأنفال] قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكانت عمارة المشركين للبيت الحرام كما أخبر ربنا –تبارك وتعالى -: **{وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً}** [(٣٥) سورة الأنفال]، ولذلك لما كانوا بهذه الحال من الإشراك والاشتغال بالباطل والصد عن سبيل الله -عز وجل - لم يكونوا أولياء البيت الحرام؛ لأن عمارته إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح والصلاة والذكر، وقد قال الله -عز وجل -: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}** [(١٧) سورة التوبة].

والذي عليه عامة أهل العلم أن المكاء هو التصفير، والتصدية هي التصفيق، قال عنترة:

حَلِيل غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَنْدَلاً *** تَمْكُو فَرَائِصهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ

وقال حسان بن ثابت -رضي الله عنه -:

إذا قام الملائكة انبعثتم *** صلاتكم التصدي والمكاء

وبعضهم فسر المكاء بوضع الأصابع في الفم، والتصدية بالتصفير، وهذا خلاف المشهور، وقد كان الكفار يفعلون المكاء والتصدية لسببين:

الأول: تقرباً إلى الله -عز وجل - وتعبداً.

الثاني: يصفرون ويصفقون ليشغلوا النبي – صلى الله عليه سلم - وحتى لا يستمع إليه أحد، وقد قال الله –تبارك وتعالى - عنهم: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}** [(٢٦) سورة فصلت] وهذا الفعل منهم في غاية السفه، ولا يفعله صاحب المروءة وإنما يفعله سفهاء الناس.

وقد أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية المنع من التصفيق والتصفير؛ لأن الله –عز وجل - قد ذم ذلك وعابه، فلا يليق بالمسلم أن يشابه الكفار.

وفي بعض الروايات الإسرائيلية أن المراد بقوله -تبارك وتعالى - عن قوم لوط -صلى الله عليه وسلم -: **{وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ}** [(٢٩) سورة العنكبوت] التصفير والتصفيق والأفعال التي لا تليق، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم - ((إنما التصفيق للنساء))[٢].

ويفهم من هذا الحديث أن تصفيق المرأة في غير الصلاة جائز من باب أولى، فالتصفيق في حق النساء أسهل منه في حق الرجال، ومعلوم أن المرأة قد يترخص في حقها أكثر مما يترخص في حق الرجل، مثل الضرب

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول فتأخر الأول أو لم يتأخر جازت صلاته فيه عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم، (٢ / ٩٥)، برقم (٦٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تسبيح الرجل وتصفيق المرأة إذا نابهما شيء (٢ / ٢٧)، برقم (٩٨٢).

بالدف فإنه لا يجوز للرجال لا في النكاح ولا في العيد ولا في غيره، ولكن النساء يحل لهن ذلك، نظراً لما جُبلن عليه، ومغايرتهن للرجال في الطبيعة والخلقة.

فلا يحسن بالرجل أن يصفق ولا يصفر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أعجبه شيء كبر، وإذا تعجب من شيء سبح.

قوله: {فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٣٥) سورة الأنفال] هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى- {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [(٤٩) سورة الدخان]، مع أن العذاب إنما يقع على أبدانهم ونفوسهم، والذوق معلوم أنه يختص باللسان، ولكن صار يعبر عنه بكل من وجد غبّ شيء وألمه.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٣٦ -٣٧) سورة الأنفال]، **قال محمد بن إسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بِعِيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ} إلى قوله: {هُمُ الْخَاسِرُونَ}.**

هذه الرواية لا تصح، ومعلوم أن المشركين حينما خرجوا في بدر وأُحد أنفقوا أموالهم في الصد عن سبيل الله -عز وجل- وكانوا في مسيرهم إلى أحد يذبحون كل يوم نحو عشر من الإبل.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} لا يختص بكفار قريش، بل هو عام في كل الكفار، ومعلوم أن الناس أسرى لعقائدهم وأفكارهم ومبادئهم، فهم ينفقون نفيس الأموال في سبيل نصرتها وإعزازها ونشرها بين الناس، بل ويبذلون المُهَج في سبيل مبادئهم.

قوله: {يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٦) سورة الأنفال] سواء كان في ميدان المعركة أو في غير ذلك من الميادين.

قال: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} العبرة بالنهايات لا بكمال البدايات، وهذا معلوم ومشاهد إلى يومنا هذا، فعبدة الصليب ينفقون المليارات في حرب المسلمين، وفي القنوات التنصيرية والإباحية التضليلية وعند النظر إلى هذه الأرقام قد يصاب الإنسان بالإحباط الشديد، ولكن إذا تذكر قول الله -تبارك وتعالى-: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [(٣٦) سورة الأنفال] يشعر بالأمل من جديد.

وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدي وابن أبزى: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هذا الأسلوب ليس صريحاً في سبب النزول، فأبو سفيان ممن تشمله الآية، ونزلت في المطعمين من قريش، والآية تعم كل أهل الكفر؛ لأن الله قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} ولم يقل: إن قريشاً ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، ومن المعلوم أن الاسم الموصول من صيغ العموم.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة، حيث لم تجزِ شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، {وَاللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [(٨) سورة الصف] **وناصر دينه ومعلٍ كلمته ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [(٣٦) سورة الأنفال].**

وقوله تعالى: {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(٣٧) سورة الأنفال] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله: {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء وليميز من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] الآية، وقال تعالى{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢)** سورة آل عمران] **فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ}** [(٣٧) سورة الأنفال]**، أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض فيجعله في جهنم {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٣٧) سورة الأنفال]**

أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

قدّر الله -عز وجل - ذلك لحكمة وهي أن يتميز الناس؛ لأن بذل النفوس والأموال في سبيل الله -عز وجل - أمر شاق غاية المشقة، قال –عز وجل -: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ}** [(٢١٦) سورة البقرة] وأقدَرَ هؤلاء الكفار وأنهض عزائمهم من أجل قتالكم وبذل الأموال في الصد عن سبيل الله، فالله -عز وجل - يبلو المؤمنين بالكفار ويبلو الكفار بالمؤمنين **{لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}** فيظهر أهل النفاق في هذه الأعمال والعبادات الشاقة كما قال الله -عز وجل - في قصة أحد: **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران]، وقال في الأحزاب: **{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا}** [(١٥) سورة الأحزاب] قيل: هؤلاء من بني سلمة انهزموا في أحد فندموا فعاهدوا الله -عز وجل - ألا يعودوا، وأخبر الله عن المنافقين بقوله: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا *وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}** [(١٢ -١٣) سورة الأحزاب] .

{قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ *وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٣٨ - ٤٠) سورة الأنفال].

يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم -: {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ} أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة {يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ} أي: من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم.

قوله: {إِن يَنتَهُواْ}، يعني انتهوا عن الكفر، فسبب المغفرة هو دخول الإسلام، ولا يكفي الانتهاء عن القتال، وهذا دليل على أن ما عمله الكفار يكفّره الله -عز وجل - إذا دخلوا في دين الله أفواجاً، وإن لم يستحضروا توبة من أعمالهم.

كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر))[3].

قد يفهم من هذا الحديث أن العبد إذا أساء وعصى، فإنه يؤاخذ بأعماله التي كانت في الجاهلية، وهذا ليس مراداً -والله تعالى أعلم - لأن النصوص تدل على أن الله -تبارك وتعالى - يغفر لهم جميع الذنوب.

وقال بعض أهل العلم: إنه إذا دخل الإسلام وهو مصر على بعض الذنوب، كالزنى مثلاً، فإنه لا يغفر له ما قارف في الجاهلية من هذا النوع من المعاصي، وهذا القول رواه ابن هانئ عن الإمام أحمد -رحمه الله -، لكن الذي عليه عامة أهل العلم: أن الكافر إذا دخل في الإسلام فإن الله يغفر له جميع الذنوب، أما معنى قوله -صلى الله عليه وسلم -: ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر))، فهو أن من أحسن في الإسلام فلم يبدل ولم يغير ولم تحصل منه ردة أو نفاق، فلا يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، أما من دخل في الإسلام ثم ارتد، أو دخل في الإسلام رياءً أو نفاقاً فإنه لا يغفر له، وهذا الذي عليه عامة المحققين.

وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((الإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها)).

هذا الحديث جاء من طريق يزيد بن أبي حبيب عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول يا أبتاه، أما بشّرك رسول الله -صلى الله عليه و سلم - بكذا ؟ أما بشرك رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بكذا ؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاثة لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم -

---

[3] - رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة (٦/٢٥٣٦)، برقم (٦٥٢٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية؟ (١/١١١)، برقم (١٢٠).

فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: ((مالك يا عمرو؟)) قال: قلت أردت أن أشترط، قال: ((تشترط بماذا؟)) قلت: أن يُغفر لي، قال: ((أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟))[٤] إلى آخر الحديث.

وقوله: {وَإِنْ يَعُودُواْ} [(٣٨) سورة الأنفال] أي: يستمروا على ما هم فيه، {فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ} [(٣٨) سورة الأنفال] أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

والسنة هي الشيء الثابت، والسنن لا تقاس باليوم والسنة والعشر السنوات، ومن نظر إلى صفحة التاريخ كاملة يتضح له ذلك، فأين التتر؟، وأين تلك الجيوش العارمة والهمج الذين هجموا على بلاد المسلمين؟ وأين الحملات الصليبية والاستعمار الذي طبق جميع بلاد المسلمين؟

---

[4] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١ / ١١٢)، برقم (١٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٤٢) سورة الأنفال].

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} أي: إذ أنتم نزولٌ بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، {وَهُم}، أي: المشركون نزولٌ {بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة {وَالرَّكْبُ} أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة {أَسْفَلَ مِنكُمْ} أي: مما يلي سيف البحر، {وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ} أي: أنتم والمشركون إلى مكان {لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}، قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم، {وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفي حديث كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه - قال: إنما خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فوجدوه يصلي، فجعل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجَوْا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وسجد سجدتين ثم سلم وقال: ((إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟)) قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، -والكثيب العقنقل -، فقال لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((كم القوم؟)) قالا: كثير، قال: ((ما عدتهم؟)) قالا: ما ندري قال: ((كم ينحرون كل يوم؟)) قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((القوم ما بين التسعمائة إلى الألف)) ثم قال لهما: ((فمن فيهم من أشراف قريش)) قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن

عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ودّ، فأقبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - على الناس فقال: **((هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها))**[1].

وقوله: {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} [(٤٢) سورة الأنفال] قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد، وبسْطُ ذلك: أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، {وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ} أي: يؤمن من آمن {عَن بَيِّنَةٍ} أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] وقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها - في قصة الإفك: فهلك فيّ من هلك. أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك.

وقوله: {وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ} أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به،{عَلِيمٌ} أي: بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى}** [(٤٢) سورة الأنفال]، المقصود بالعدوة الدنيا: شاطئ الوادي، فكل ناحية من نواحي الوادي يقال لها: عدوة.

قال: **{وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}** [(٤٢) سورة الأنفال] هذا توصيف لمواقع الطوائف الثلاث في أرض المعركة، ومن كان خارجاً عنها وهم عير أبي سفيان، فقد كانوا في ناحية الساحل، ولم يكن المسلمون يعرفون موقع العير حينما كانوا ببدر، فصادفهم الجيش، والركب جمع راكب ولا يقال ذلك إلا لراكبي الإبل.

وقول ابن كثير -رحمه الله -: **"والكثيب العقنقل"** أي: الكثيب العظيم من الرمل المتداخل.

قوله: **{لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ}** [(٤٢) سورة الأنفال] أي: ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، فقد كان أهل الإيمان ضعفاء ولم يكن لهم ظهور وكانت العرب تسمع من قريش، ولا تعرف عن المسلمين إلا أنهم من الصابئين الذي صبئوا وتركوا دينهم ويسمعون عنهم سيئ القول الذي تذيعه قريش، فلما انتصر المسلمون ظهر أمرهم واتضح وبان، ولم يعد فيه لبس ولا غبش ولا غموض، فمن أراد الحق فدلائله ظاهرة وواضحة.

{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى

---

[1] - انظر السيرة النبوية، لابن هشام (١٦٤/٣).

{اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [(٤٣ - ٤٤) سورة الأنفال].

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم - أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم، وكذا قال إسحاق وغير واحد.

وقوله: {وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ} أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، {وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ} أي: من ذلك بأن أراكهم قليلاً، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [(١٩) سورة غافر].

وقوله: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً} [(٤٤) سورة الأنفال] وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجرِّئهم عليهم ويطمعهم فيهم.

قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه - قال: لقد قُللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقوله: {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال] روى ابن أبي حاتم عن عكرمة: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ} الآية قال: حضض بعضهم على بعض، إسناده صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى: {لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} [(٤٤) سورة الأنفال] أي: ليلقي بينهم الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا: أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} [(١٣) سورة آل عمران] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

أرى الله -عز وجل - رسوله -صلى الله عليه وسلم - المشركين بعدد قليل، فأخبر أصحابه بهذا فقويت قلوبهم على مواجهتهم، وحينما تراءى الجمعان كان المسلمون يرون المشركين قلة، وكان المشركون يرون المسلمين قلة، فأغرى الله -عز وجل - بعضهم ببعض، وكان ذلك دافعاً ومقوياً لعزائمهم حتى وقع الالتحام، ثم بعد ذلك صار المشركون يرون المسلمين ضعفيهم، فحصل للمشركين الخوف والانكسار والضعف وكان ذلك سبباً لهزيمتهم، وهذا هو الجمع بين قول الله -تبارك وتعالى - {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال] وقوله -تبارك وتعالى -: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} [(١٣) سورة آل عمران].

قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٤٥ -٤٦) سورة الأنفال].

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ} ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله تعالى عنه -

عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: ((يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف))، ثم قام النبي -صلى الله عليه وسلم - وقال: ((اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم))[2].

وعن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ} [(٤٥) سورة الأنفال].

قوله -تبارك وتعالى -: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ}** [(٤٥) سورة الأنفال] أي: لا تنهزموا وتفروا، ثم ذكر -سبحانه - أهم الأمور التي يحصل بها الثبات، فقال: **{وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ}**، والفلاح هو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، والظفر والنصر من الفلاح، والذكر هو السبب في هذا الفلاح، وسبب لتفريج الشدائد، وقد مدح الله -تبارك وتعالى - الذاكرين بقوله: **{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** [(٣٥) سورة الأحزاب]، وأمر عباده بالذكر فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [(٤١ -٤٢) سورة الأحزاب]، وقال -صلى الله عليه وسلم - في أهل الذكر: ((سبق المفردون)) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟، قال: ((الذاكرون الله كثيراً والذاكرات))[3].

وذكْر الله -عز وجل - شيء يسير((كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان))[4]، ويستطيع العبد أن يذكر ربه على أي حال، ولهذا قال الله -عز وجل -: **{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}** [(١٠٣) سورة النساء].

وأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم.

{وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [(٤٦) سورة الأنفال] أي: قوتكم وحدّتكم، وما كنتم فيه من الإقبال، {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٤٦) سورة الأنفال] وقد كان للصحابة -رضي الله تعالى عنهم - في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول -صلى الله عليه وسلم - وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، فقهروا الجميع حتى علت كلمة

---

[2] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو (١١٠١/٣)، برقم (٢٨٦١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عن اللقاء (١٣٦٢/٣)، برقم (١٧٤٢).

[3] - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٠٦٢/٤)، برقم (٢٦٧٦).

[4] - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٢٣٥٢/٥)، برقم (٦٠٤٣).

الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب.

قوله –تبارك وتعالى -{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٤٦) سورة الأنفال] الفاء في قوله: {فَتَفْشَلُواْ} تدل على التعليل والتعقيب، وهذا دليل على أن التنازع سبب محقق للفشل، ولا شك أن التنازع والاختلاف من أعظم أسباب فشل الأمة وهزيمتها في هذا العصر، وبهذا تكون الأمة غير مؤهلة للنصر بل هي إلى العقوبة أقرب، وقد أخبر الله عن المنافقين بقوله: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} [(١٤) سورة الحشر] ، فالذين يعقلون هم الذين يجتمعون وتكون كلمتهم واحدة، ولما قال موسى –عليه الصلاة والسلام - لقومه: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} [(٦١) سورة طـه] ، أخبر عنهم ربنا –عز وجل - بقوله: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} [(٦٢) سورة طـه]، فقد أسروا النجوى حتى لا يطلع خصمهم على النزاع الذي بينهم فيقوى طمعه فيهم، فقالوا: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [(٦٣ -٦٤) سورة طـه]

وقوله –تبارك وتعالى -: {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [(٤٦) سورة الأنفال]، أي: قوتكم.

قوله -عز وجل -: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٤٧ -٤٩) سورة الأنفال]، يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً، أي: دفعاً للحق {وَرِئَاء النَّاسِ} وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليهم أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر، وردوا به الحمام، ورُمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: {وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم. قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ} [(٤٧) سورة الأنفال] قال: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يوم بدر، وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [(٤٧) سورة الأنفال].

قوله -تبارك وتعالى -: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [(٤٧) سورة الأنفال] البطر: هو التعالي في الأرض بغير الحق، ويدخل فيه ما ذكره

الحافظ ابن كثير: أي: **"دفعاً للحق"** فهو مقتبس من تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للكبر: ((بطر الحق وغمط الناس))[5]، وقال بعضهم: البطر هو استعمال نعم الله –عز وجل- في معاصيه.

قوله: **{وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(٤٧) سورة الأنفال]، أي: يصدون أنفسهم عن سبيل الله بفعلهم هذا وبكفرهم، فهم صادون معرضون، ويصدون غيرهم؛ لأن "صدّ" تأتي لازمة وتأتي متعدية، فهي لازمة باعتبار إعراضهم بأنفسهم عن الحق، ومتعدية باعتبار أنهم يصدون غيرهم عن الحق.

وقوله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [(٤٨) سورة الأنفال] الآية، حسّن لهم -لعنه الله- ما جاءوا له وما همّوا به، وأطمعهم أنهم لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [(١٢٠) سورة النساء].

قال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وإني جار لكم.

فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة نكص على عقبيه، قال: رجع مدبراً، وقال: {إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ} [(٤٨) سورة الأنفال] الآية.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: {لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} فلما اصطف الناس أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل -عليه السلام- إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً هو وشيعته.

فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: {إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٤٨) سورة الأنفال] وذلك حين رأى الملائكة.

يذكر بعض أهل السير: أن المشركين لما أرادوا الخروج لاستنقاذ العير، ذكّرهم بعضهم بما بينهم وبين بني بكر من العداوة، فخشوا أن يعرجوا على مكة حينما يخرج هؤلاء منها، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، فقال: **{إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ}** وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة دفعه في صدره ثم انطلق إلى ناحية البحر، وهذه الروايات ليست بتلك من ناحية الثبوت، وقال بعضهم: إن إبليس سار يوم بدر مع المشركين وألقى في قلوبهم **{إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ}**.

قوله: **{إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [(٤٨) سورة الأنفال]، جاء عن كثير من السلف أن إبليس كان كاذباً بقوله هذا، والمقصود أن إبليس لما رأى الملائكة خاف أن يقع به بأس الله -عز وجل- ونكاله وبطشه في الدنيا، كما يخاف الكافر أو الفاجر من مغبة فعله، فهذا الخوف لا يستلزم الإيمان.

---

[5] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (١/٩٣)، برقم (٩١).

وقال بعض أهل العلم: إن إبليس خشي أن يكون هذا هو يوم الوقت المعلوم الذي حدده الله –عز وجل - له.
قوله –تبارك وتعالى -: **{وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [(٤٨) سورة الأنفال] هذه الجملة يحتمل أن تكون من بقية كلام الشيطان، ويحتمل أن تكون من كلام الله -عز وجل -.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [(٥٥ -٥٧) سورة الأنفال].

أخبر تعالى أن شر ما دبَّ على وجه الأرض هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، {وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ} أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام، {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ} أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب {فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ} أي: نكل بهم، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - والحسن البصري والضحاك والسدي، وعطاء الخرساني وابن عيينة ومعناه: غلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} وقال السدي: يقول لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ}** [(٥٦) سورة الأنفال]، حينما حصلت غزوة بدر لم يكن بين النبي -صلى الله عليه وسلم - وبين المشركين عهد، وإنما كانت عهوده -صلى الله عليه وسلم - مع اليهود، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم - حينما هاجر إلى المدينة وادع اليهود وعاهدهم، ولهذا قال كثير من السلف: إن المقصود من هذه الآية هم اليهود، ومن أهل العلم من خص هذه الآية ببني قريظة، واختار ابن جرير الطبري -رحمه الله - أن هذه الآية في بني قريظة ونظرائهم ممن عاهدهم النبي -صلى الله عليه وسلم - ووادعهم، أما كفار مكة فلم يكن بينهم وبين النبي -صلى الله عليه وسلم - عهد إلا في غزوة الحديبية في السنة السادسة.

قوله: **{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ}** [(٥٥ -٥٧) سورة الأنفال]، الثَّقْف هو الحذق في إدراك الشيء، والحاذق في صنعة أو في علم يقال له: مثقف.

والتشريد هو التفريق مع اضطراب، ومعنى: **{فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ}** أي: نكل بهم واقتلهم قتلاً ذريعاً وأوقع بهم بأسك من أجل أن يرتدع من وراءهم فيخاف، ولا يجرؤ على نقض العهد أو الخيانة، وهذا الذي حصل لبني قريظة، فقد قتل كل من يقدر على حمل السلاح في صبيحة واحدة، وسبى النساء والذرية، وأخذت الأموال.

{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [(٥٨) سورة الأنفال]، يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم -: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ} قد عاهدتهم {خِيَانَةً} أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، {فَانبِذْ إِلَيْهِمْ} أي: عهدهم، {عَلَى سَوَاء} أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} أي: حتى ولو في حق الكافرين لا يحبها أيضاً.

روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال: كان معاوية -رضي الله تعالى عنه - يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً، إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء)) قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع، فإذا الشيخ عمرو بن عنبسة -رضي الله تعالى عنه -[1] وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قوله: {عَلَى سَوَاء} أي: إذا تخوفت من قوم خيانة بنقض العهد فأعلمهم بنبذ العهد إليهم، وأنه لا عهد بينك وبينهم، فتستوي معهم في هذه الحال وأن الحرب قائمة، هذا من أحسن ما فسرت به هذه الآية -والله تعالى أعلم - وذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى قوله: {عَلَى سَوَاء} أي: يستوي في علم ذلك أولهم وآخرهم، وقول ابن كثير هو الأرجح.

{وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [(٥٩ -٦٠) سورة الأنفال].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم -: ولا تحسبن يا محمد {الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ} أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [(٤) سورة العنكبوت] أي يظنون.

وقوله تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(٥٧) سورة النور]، وقوله تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٩٦ -١٩٧) سورة آل عمران]، ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم} أي مهما أمكنكم {مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول وهو على المنبر: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} ((ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي))[2]، رواه مسلم.

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير (٨٣/٣)، برقم (٢٧٥٩)، والترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر (١٤٣/٤)، برقم (١٥٨٠)، وأحمد (١١١/٤)، برقم (١٧٠٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٤٧٢).

[2] - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (١٥٢٢/٣)، برقم (١٩١٧).

قوله: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ} [(٥٩) سورة الأنفال] هذه قراءة حفص وابن عامر وحمزة، وقرأ الباقون {وَلا تَحْسَبَنَّ}، وقد أنكر قراءة الياء كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله - ولا شك أنها قراءة متواترة، وما ذكره ابن جرير وغيره مجاب عنه في مواضعه.

قوله: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [(٦٠) سورة الأنفال]، {مِّن قُوَّةٍ} أي: كل قوة مستطاعة، {وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} الخيل من جملة القوة، وهذا من باب عطف الخاص على العام، فيدل على أهمية الخيل، والمقصود برباط الخيل، أي: الخيل التي ترتبط في سبيل الله، وبعض أهل اللغة جعل ذلك مختصاً بما كان يبلغ الخمس فما فوقها، فيقال له: رباط الخيل.

وقد أمر –تبارك وتعالى - المؤمنين بإعداد العدة لحرب الكفار –مع أن الكفار تحت قبضته –سبحانه - ونواصيهم بيده -؛ لكي يحصل التمايز بين الناس، ويحصل اصطفاء الشهداء، وشفاء صدور المؤمنين، وبلاء المؤمنين بالكفار، كما قال –تبارك وتعالى -: {وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد].

وقد ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم - أعلى درجات القوة وأشدها فتكاً بالعدو فقال: ((ألا إن القوة الرمي))[3]، ولهذا جاء الحث على تعلم الرمي فقال –صلى الله عليه وسلم -: ((ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً))[4]، وقد فسر بعض أهل العلم القوة بالحصون وهي نوع واحد من أنواع القوة.

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم - قال: ((الخيل لثلاثة لرجل أجْر ولرجل ستر وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواء، فهي على ذلك وزر))، وسئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم - عن الحمر فقال: ((ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧ -٨) سورة الزلزلة]))[5]، رواه البخاري وهذا لفظه ومسلم.

قوله –صلى الله عليه وسلم -: ((في مرج أو روضة)) المرج: الأرض الواسعة ذات النبات الكثير، تسرح فيها الدواب، والروضة أخص من المرعى، فهي الأرض ذات النبات الكثير.

قال: ((فما أصابت في طيلها)) أي: الحبل الذي تربط فيه يد الدابة، وعادة الحبل الذي يربط به الفرس أن يكون طويلاً؛ لأن الفرس يحتاج إلى تربية ولا بد أن ينطلق.

---

[3] - تقدم تخريجه.

[4] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي (٣/١٠٦٢)، برقم (٢٧٤٣).

[5] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل لثلاثة (٣/١٠٥٠)، برقم (٢٧٠٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢/٦٨٢)، برقم (٩٨٧)، واللفظ للبخاري.

قوله: ((فاستنت شرفاً أو شرفين)) يحتمل أن يكون المعنى أنها تنطلق فتصعد على مكان عال، وهذا من طبيعة الخيل، أو أنها تنطلق شوطاً أو شوطين، فهي لا تتوقف عن الحركة، وكل هذه الخطوات مكتوبة لصاحبها؛ لأنها قد ربطت في سبيل الله.

قوله: ((ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر)) يعني الذي ربطها تغنياً وتعففاً من أجل استيلادها وبيع أولادها ونحو هذا، فهي له ستر؛ لأنه ربطها لغرض مباح.

قوله: ((ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواء، فهي على ذلك وزر))، أي: ربطها رياء ومناوأة ومعاداة لأهل الإسلام فهي عليه وزر.

قوله: وسئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - عن الحمر فقال: ((ما أنزل الله علي فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧ -٨) سورة الزلزلة].

بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم - أن من اتخذ الحمر لأمر يحبه الله -عز وجل - ورسوله -صلى الله عليه وسلم - فإنه يؤجر عليه، وذلك لعموم قوله تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٧ -٨) سورة الزلزلة].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((الخيل ثلاثة، ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله)) وذكر ما شاء الله، ((وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليها، وأما فرس الإنسان فالفرس يربطها الإنسان يلتمس بطنها فهي له ستر من الفقر))[6].

وفي صحيح البخاري عن عروة بن أبي الجعد البارقي -رضي الله تعالى عنه -: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم))[7].

وقوله: {تُرْهِبُونَ} أي: تخوِّفون {بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} أي: من الكفار {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ} قال مجاهد: يعني بني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، ويشهد له قوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [(١٠١) سورة التوبة]، وقوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [(٦٠) سورة الأنفال] أي: مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، كما تقدم في قوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٦١) سورة البقرة].

---

6 - رواه أحمد (١/٣٩٥)، برقم (٣٧٥٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥ / ٣٣٨).

7 - رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد مع البر والفاجر (٣/١٠٤٨)، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (٣ / ١٤٩٢)، برقم (١٨٧١)، واللفظ للبخاري.

ذكر الله –سبحانه - العلة من أمره بإعداد العدة فقال: **{تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ}**، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم - : ((نصرت بالرعب مسيرة شهر))[8]، وقال: ((وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم))[9].

قوله –تبارك وتعالى -: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}** [(٦٠) سورة الأنفال]

قوله: **{تُرْهِبُونَ}** أي: تخوفون **{بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ}** قدم عداوة الله -عز وجل - على عداوة المؤمنين؛ لأن عداوة المؤمنين تبع لعداوة الله -عز وجل - فهم يعادون من عاداه الله ولو كان أقرب قريب إليهم، ويوالون من والى الله ولو كان أبعد ما يكون نسباً عنهم.

قال: **{وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ}** قال مجاهد: يعني بني قريظة وقيل: فارس.

قال: **{لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ}** أي: هؤلاء الآخرين لا تعلمونهم الله هو الذي يعلمهم، فمن أهل العلم من قال: هم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وقال الإمام ابن جرير -رحمه الله -: المراد بهم الجن، والذي حمل ابن جرير -رحمه الله - على هذا القول هو أن عداوة قريظة كانت معروفة ولم تكن خفية، وأما أهل النفاق فلم تكن ترهبهم قوة المسلمين؛ لأنهم يظهرون الموافقة، والقوة لم تكن قد أعدت لهم، وذكر ابن جرير بعض الآثار من أن الجن يخافون من الخيل وصهيلها، وهذه الآثار لا يثبت منها شيء.

وإعداد هذه القوة ترهب أعداء الله الظاهرين، وترهب آخرين من دونهم لا يعلمهم المسلمون، وهذا أمر لا شك فيه، فالمسلمون إن كان عندهم قوة ظاهرة ضاربة فإنه يخافهم عدوهم الظاهر وعدوهم الآخر الخفي، فتكون الأمة مرهوبة الجانب يحترمها القريب والبعيد، وكلمتها نافذة، وهذا الذي كان لهذه الأمة في أزمان وقرون متطاولة، فقد كان لا يُعيَّن حاكم في أوروبا إلا بموافقة الخليفة العثماني، وحصل في بعض المرات تعيين بعض الملوك الأمراء، فأرسل الجيش حتى أُبعد وعُزل، وقد كانت روسيا تدفع الجزية للدولة العثمانية.

{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٦١ -٦٣) سورة الأنفال].

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، {وَإِن جَنَحُواْ} أي: مالوا {لِلسَّلْمِ} أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، {فَاجْنَحْ لَهَا} أي: فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضْعَ الحرب بينهم وبين رسول الله –صلى الله عليه وسلم - تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأُخَر.

---

[8] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم -: ((نصرت الرعب مسيرة شهر)) (٣ / ١٠٨٧)، برقم (٢٨١٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/٣٧٠)، برقم (٥٢١).

[9] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح (٣ / ١٠٦٦)، وأحمد (٩ / ١٢٣)، برقم (٥١١٤)، واللفظ لأحمد.

قوله: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} أي: مالوا، والجنوح هو الميل، تقول: جنحت الإبل بأعناقها، أي: مالت بأعناقها، قال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بآية السيف؛ لأن الله -عز وجل- قال في الآية الخامسة من سورة براءة: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥) سورة التوبة] فقالوا: لا مجال للسلم والمصالحة مع العدو الكافر، ولكن القول بالنسخ فيه نظر، والقاعدة: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وأنه لا يصار إليه إلا مع التعارض من كل وجه، ولا يوجد معارضة، وقد قال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إن قوله: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} نزلت في أهل الكتاب الذين يخيرون بين القتال أو الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون، فإذا قبلوا المسالمة ورضوا بدفع الجزية، كف عن قتالهم، وأما أهل الأوثان فإنه لا تقبل منهم الجزية، على خلاف بين أهل العلم في هذه المسألة.

وتجوز المسالمة للكفار إذا كان أهل الإسلام في ضعف لا يستطيعون قتال العدو، وقد اشترط بعض أهل العلم ألا تزيد هذه الهدنة عن عشر سنين؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- وادع المشركين عشر سنين، والمقصود ألاَّ تكون الهدنة دائمة؛ لأن المسلمين مأمورون بإعداد القوة ومجاهدة أعدائهم.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنه سيكون بعدي اختلاف -أو أمر- فإن استطعت أن يكون السلم فافعل))[10].

هذا الحديث لا يصح ولكن على فرض صحته، فمعناه -والله تعالى أعلم- يشير إلى ما وقع بين المسلمين من الاختلاف، ووجّه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك إلى علي -رضي الله عنه- وهذا من دلائل نبوته -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ} أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، {فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ} أي: كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} أي: جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك، {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٣) سورة آل عمران]، وفي الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: ((يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟)) كلما قال شيئاً قالوا: الله

---

10 - رواه أحمد (١/٩٠)، برقم (٦٩٥)، وقال محقق المسند: إسناده ضعيف.

ورسوله أمَنّ[11]، ولهذا قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٦٣) سورة الأنفال] **أي: عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.**

التأليف بين القلوب لا يختص بما كان بين الأوس والخزرج، أو بما حصل من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لأن الآية أعم من ذلك، فقد صار يجتمع في المدينة الأوسي والخزرجي والقرشي والجهني وغير هؤلاء من قبائل العرب من أنحاء الجزيرة العربية بعدما كانوا طوائف متناحرة.

قوله: **{لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [(٦٣) سورة الأنفال].

لا يمكن أن تحصل هذه الألفة والإخاء إلا بالتوحيد والإيمان واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم - ويستحيل جمع الناس على المال والدنيا ولو كان هذا المال ملء الأرض؛ لأن الناس أسرى لعقائدهم وأفكارهم ولا يمكن أن يتخلوا عنها بشيء من المال.

---

[11] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال (٤/١٥٧٤)، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (٢/٧٣٨)، برقم (١٠٦١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنفال (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٧٢) سورة الأنفال].

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين -خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك - وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول -صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما.

روى الإمام أحمد عن جرير -هو ابن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة))[1]، تفرد به أحمد، وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ} [(١٠٠) سورة التوبة] الآية، وقال: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [(١١٧) سورة التوبة] الآية، وقال تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [(٨ -٩) سورة الحشر] الآية، وأحسن ما قيل في قوله: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك.

---

[1] - رواه أحمد (٣١ / ٥٤٧)، برقم (١٩٢١٥)، وقال محققو المسند: صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فسر الحافظ ابن كثير –رحمه الله- قول الله –تبارك وتعالى -{أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٧٢) سورة الأنفال] بتفسير فيه شيء من الإجمال، فقال: **"أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد"**، فتحتمل العبارة أن يكون المراد أحق بالآخر أي من جهة الميراث، هذا يشعر به ما أورده بعده من المؤاخاة التي عقدها النبي –صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار، فهذه أخوة خاصة يحصل بها التوارث، كما أن العبارة تحتمل أنهم أولياء بعض من جهة النصرة والمعونة، وقد حمل طائفة من السلف الآية على التوارث في الميراث فقالوا: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}، أي: في التوارث في الميراث، كما كان الأمر عليه في أول الأمر، فكان الأنصاري يرثه أخوه من المهاجرين دون قراباته من الأنصار، وهذا القول هو ظاهر كلام ابن كثير –رحمه الله- ويحتمل أن معنى قول الله –تبارك وتعالى-: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}، أي: في النصرة والإعانة وغيرها من المعاني الداخلة تحت الموالاة وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

وحمل الآية على المواريث يدل على أنها منسوخة بقول الله -تبارك وتعالى-: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [(٦) سورة الأحزاب]، ويحتمل أن يكون الناسخ هي الآية التي في آخر هذه السورة وهي قوله –تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٧٥) سورة الأنفال]

أما إذا حملنا الآية على النصرة والإعانة، فالتوارث الذي كان بين المهاجرين والأنصار ثبت بالسنة النبوية ونسخ بقول الله -تبارك وتعالى-: {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [(٦) سورة الأحزاب]، وبقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٧٥) سورة الأنفال]، وهذا من نسخ القرآن للسنة، كما في نسخ التوجه إلى بيت المقدس، فقد نسخ بالقرآن.

ولعل هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- وهو أن قول الله –تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} ليس في المواريث، وإنما هو في الموالاة، ولهذا قال بعدها: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال].

وقد أورد المصنف قول الله –تبارك وتعالى -{وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً} [(٩) سورة الحشر]، وقال في معناها: **"أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم"** وهذا كلام مجمل من العلامة ابن كثير –رحمه الله-.

ولما فتح الله عليه النضير، خيَّر النبي –صلى الله عليه وسلم- الأنصار، أن يبقى المهاجرون في أرضهم فيقسمها النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار، أو أن يخرج المهاجرون من أرضهم، فيقسمها بين المهاجرين خاصة، فقالوا: بل يبقون في أرضنا وتقسمها بينهم خاصة دوننا، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا

{أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٩) سورة الحشر].

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم} [(٧٢) سورة الأنفال]، قرأ حمزة {ولايتهم} بالكسر، والباقون بالفتح وهما واحد كالدِّلالة والدَّلالة، {مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ} [(٧٢) سورة الأنفال] هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الإمام أحمد عن بريدة بن الحصيب الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: ((اغز باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم))[٢]، انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر.

قوله: **{مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ}** [(٧٢) سورة الأنفال] يحتمل أن يكون المراد بهذه الآية الميراث، ويحتمل أن يكون المراد بها النصرة، وابن جرير -رحمه الله- حملها على الأمرين، ولم تكن مسألة التوارث متعلقة بالهجرة، وإنما كانت تتصل بالمؤاخاة، فالآية -والله أعلم- يراد بها النصرة، ويكون المعنى ما لكم من أمر ولايتهم ونصرتهم من شيء حتى يهاجروا.

(مسألة) قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا هجرة بعد الفتح))[٣] لا يدل على انقطاع الهجرة فحكمها باقٍ إلى قيام الساعة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد يهاجر الإنسان من بلد الإسلام إذا لم يجد مجالاً للدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- والتعريف المشهور للهجرة -أنها الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام- فيه نقص، وهو نوع من أنواع الهجرة.

وقوله: {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [(٧٢) سورة الأنفال] الآية، يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار {بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ} أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-

---

[2] - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (٣ / ١٣٥٦)، برقم (١٧٣١).

[3] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية (٣ / ١٠٤٠)، برقم (٢٦٧٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (٣ / ١٤٨٧)، برقم (١٣٥٣).

الأعراب الذين بقوا في بواديهم ولم يهاجروا، والذين بقوا بين الكفار ولم يهاجروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس لهم من الغنيمة ولا الفيء، ولهم النصرة بشرط ألا يكون بين المسلمين وبين الكفار ميثاق.

{وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]، لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم في مستدركه عن أسامة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً)). ثم قرأ: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}[4] ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم))[5] ومعنى قوله: {إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]، أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}** [(٧٣) سورة الأنفال]، حمل بعض أهل العلم هذه الآية على المواريث، وإيراد المصنف -رحمه الله- لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يتوارث أهل ملتين)) يشعر بهذا، وإن كان المصنف في آخر كلامه حملها على المحبة والنصرة، والراجح أن الآية ليست في المواريث، وإنما هي في الموالاة المعروفة من المحبة والمودة والنصرة، ولكن حينما تتحقق الموالاة للمؤمنين والبراءة من الكافرين فينقطع التوارث؛ لأن مقتضى البراءة من الكفار هو عدم التوارث، وقطع الموالاة له صور كثيرة، ولهذا كان من أبلغ صور معاداة الكفار وقطع الموالاة عنهم الهجرة من بلادهم ومقاتلتهم، وهذا الذي حققه المسلمون مع نبينا -صلى الله عليه وسلم- فقد قدموا الرابطة الإيمانية على رابطة النسب، وهذه المعاني أصول للدين، لا يجوز المساس بها والعبث بها تحت أي عذر كان، وينبغي أن تربى الأجيال عليها، والوقوف عندها، لا يجوز لأحد أن يتجاوزها، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا أن يسمي الأشياء بغير مسمياتها، فقد وصل الأمر بالبعض أن يستكثر على الكافر أن يقال عنه الكافر، فيقول له: الآخر.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٧٤ - ٧٥) سورة الأنفال] لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي ولا يُسأم ولا يُمل لحسنه وتنوعه.

---

[4] - المستدرك، كتاب التفسير، باب قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- مما لم يخرجاه وقد صح سنده (٢٦٢/٢)، برقم (٢٩٤٤).

[5] - رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم (٢٤٨٤/٦)، برقم (٦٣٨٣)، ورواه مسلم، كتاب الفرائض، (٣ / ١٢٣٣)، برقم (١٦١٤).

في كلام ابن كثير -رحمه الله- تفريق بين قول الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٧٢) سورة الأنفال]، وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [(٧٤) سورة الأنفال] فالآية الأولى بيّنت الحكم في الدنيا من جهة التوارث -على تفسيرها بالتوارث-، والآية الثانية بيّنت ما للمؤمنين من الأجر في الآخرة، ويمكن أن يقال أيضاً بأن الآية الأولى تتحدث عن قضية الموالاة، والآية الثانية عن الثناء عليهم ومدحهم، والله تعالى أعلم.

قوله: {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} أي: ليس فيه تنغيص بحال من الأحوال.

ثم ذكر أن الأتباع على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ} [(١٠٠) سورة التوبة] الآية، وقال: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ} [(١٠) سورة الحشر] الآية، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((المرء مع من أحب))[6]، وفي الحديث الآخر: ((من أحب قوماً فهو منهم)) وفي رواية ((حشر معهم))[7].

قوله: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٠) سورة الحشر].

جعل الله -عز وجل- هذه الأمة منقسمة إلى مهاجرين وأنصار، ومن يسيرون على طريقتهم، فقال -سبحانه-: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [(١٠٠) سورة التوبة] فمن لم يكن من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين اتبعوهم بإحسان ممن يقولون: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٠) سورة الحشر]، بل يمتلئ قلبه غلاً على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فماذا سيكون؟ ولهذا قال الإمام مالك -رحمه الله-: إن الرافضة لا نصيب لهم في الفيء؛ لأن الله جعل الطوائف التي تستحق الفيء ثلاثاً، والرافضة ليست منهم.

وأما قوله تعالى: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} [(٧٥) سورة الأنفال] أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ} خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد

---

[6] - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله عز وجل (٥ / ٢٢٨٣)، برقم (٥٨١٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٤ / ٢٠٣٤)، برقم (٢٦٤٠).

[7] - رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦ / ٢٩٣)، برقم (٦٤٥٠)

على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث))[٨] قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

قوله: **{وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ}** [(٧٥) سورة الأنفال] أي: في حكم الله، وقال بعض أهل العلم: **{فِي كِتَابِ اللّهِ}** يعني القرآن، وقال بعضهم: **{فِي كِتَابِ اللّهِ}** يعني اللوح المحفوظ، وهذه المعاني لا منافاة بينها فإن قول الله: **{وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا}** [(٦) سورة الأحزاب] هو حكم لله ومثبت في كتاب الله وفي اللوح المحفوظ.

وليس المراد بقوله: **{وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ}** ما يطلقه علماء الفرائض من أن الأرحام هم القرابة الذين ليسوا من أصحاب الفروض ولا من العصبات.

---

[8] - رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث (٣ / ٧٣)، برقم (٢٨٧٢)، وابن ماجه (٢ / ٩٠٥)، برقم (٢٧١٣)، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦ / ٨٨).

(مسألة)

هذا جمع لما ذكره المفسرون في قوله تعالى: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}** [(٤٩) سورة الأنفال].

وكان المفسرون -رحمهم الله تعالى - في كلامهم على هذه الآية على قسمين، فمنهم من يجمل الكلام على الآية ولا يفصل، ومنهم من يفصل فتجده يتكلم عن قوله تعالى: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}** ثم يتكلم بعد ذلك عن الذين في قلوبهم مرض، قال الكاتب وفقه الله: وسأذكر أولاً -إن شاء الله - خلاصة أقوال القسم الأول بالإضافة إلى بعض النقولات عنهم ثم أقوال القسم الثاني والنقولات على ذلك.

أولاً: من تكلم عن الآية إجمالاً ولم يفصل، ولهم في الآية أقوال:

الأول: أن المراد هم المشركون، قال ابن جرير: حدثني حجاج عن ابن جريج في قوله: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض" قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض فقلل الله المسلمين في أعين المشركين، فقال المشركون: **{غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}**، وقال السيوطي في الدر المنثور: وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: **{غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}** فأنزل الله: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}** .

غير أن هذه الروايات لا تصح.

الثاني: أن المراد هم المنافقون بمكة، قال ابن جريج في قوله: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** هم قوم من المنافقين كانوا بمكة قالوه يوم بدر وهم يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ذكره ابن جرير وابن كثير وليس عند ابن كثير "وهم يومئذ".

وهذا القول غير صحيح؛ لأنه لم يكن في مكة نفاق، بل كان فيها شدة وتعذيب وأذى للمسلمين، ولم يكن أحد بحاجة إلى النفاق

الثالث: أن المراد بهم قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، قال ابن جرير: قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر.

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبي في الآية قال: كان أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا.

قال الثعالبي في تفسيره: قال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق إنما هم عسكر الكفار، فمن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم مكره وغير مكره، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم ارتابوا وقالوا مشيرين إلى المسلمين: **{غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}**.

الرابع: أن المراد هم المنافقون بالمدينة، قال ابن جرير: حدثنا محمد بن الأعلى قال: حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين.

وهذا غير صحيح؛ لأن الناس لم يطالبوا بالخروج في غزوة بدر؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم - خرج من أجل العير وبقي كثير من الصحابة في المدينة لم يخرجوا، فلا تُلحَق بأحد تهمة أو لوم أو معاتبة على التخلف.

قال الثعالبي في تفسيره: وقد يحتمل أن يكون منافقوا المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا هذه المقالة.

قال أبو الليث السمرقندي في تفسيره -بحر العلوم-: قوله تعالى: {إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض}. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه.

الخامس: أن المراد هم ضعاف الإيمان من المؤمنين، قال ابن سعدي -رحمه الله-: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(٤٩) سورة الأنفال]، أي: شك وشُبه من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قلتهم على قتال المشركين مع كثرتهم.

***ثانياً: من تكلم عن الآية بالتفصيل، أقوالهم في المراد بالمنافقين:**

الأول: أن المراد هم المنافقون في المدينة، قال ابن الجوزي في زاد المسير: وقوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج.

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط: وظاهر العطف التغاير، فقيل: المنافقون هم من الأوس والخزرج، لما خرج الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال بعضهم: نخرج معه، وقال بعضهم: لا نخرج.

قال الزمخشري في الكشاف: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}** بالمدينة.

قال الرازي في التفسير الكبير: هم قوم من الأوس والخزرج.

الثاني: أن المراد هم المنافقون الذين كانوا يومئذ في المسلمين، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}** قال: وهم يومئذ في المسلمين، الدر المنثور.

قال أبو حيان الأندلسي: ولم يذكر أن منافقاً شهد بدراً مع المسلمين إلا معتِّب بن قشير فإنه ظهر منه يوم أحد قوله: **{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا}** [(١٥٤) سورة آل عمران].

قال صاحب تفسير المنار: من المعلوم مما ورد في أهل بدر من آيات هذه السورة، ومن الأحاديث الصحيحة والحسنة: أنه لم يكن فيهم أحد من أولئك المنافقين ولا من الذين في قلوبهم مرض، فإن ضعفاءهم قد محصهم الله بما كانوا من جدالهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومصارحتهم له في كراهة القتال قبل وقوعه، وباقتناعهم بجوابه لهم، كما تقدم، ثم أتم تمحيصهم بخوضهم المعركة، فهم من الذين وصفهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض بأنهم غرهم دينهم، وهل يعقل أن يقول أحد منهم في المؤمنين "غرهم دينهم" وهم تبرءوا من عد أنفسهم من أهل هذا الدين؟، فإن صح ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: هم يومئذ في المسلمين، يكون أراد بهم أنهم كانوا معدودين في جملتهم، لا أنهم كانوا في الغزاة، وإلا كان خطأً مردوداً، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- لم يكن في سنه يوم بدر يميز هذه المسائل بنفسه، والرواية عنه فيها كما علمت آنفاً.

أقوالهم في المراد بالذين في قلوبهم مرض: -

الأول: قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرهاً، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقالوا: **{غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ}** قاله أبو صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وإليه ذهب الشعبي في آخرين، وعدهم مقاتل فقال: كانوا سبعة: قيس بن الوليد بن المغيرة،

وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعلي بن أمية بن خلق، والعاص بن منبه بن الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة.

قال أبو حيان الأندلسي: {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} قوم أسلموا ومنعهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وقالوا: {غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} فقتلوا جميعاً.

ذكر الألوسي في روح المعاني: قيل: فتية من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم إلى بدر، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، والعاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زمعة، وأبو قيس بن الفاكه، فالمرض على هذا: مجاز عن الشبهة.

قال الرازي في تفسيره: هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا ثم إن قريشاً لما خرجوا لحرب الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال أولئك: نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا.

قال الشنقيطي في العذب النمير: وذهبت جماعة من العلماء إلى أن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية من سورة الأنفال خُص بهم أناس معروفون، هم الذين بسط الله قصتهم في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام وإيمان ضعيف في قلوبهم، على حرف هكذا وهكذا.

قيل: إنه وصف للمنافقين، ذكر الألوسي: قيل: المراد بهم المنافقون، ويكون من باب تعاطف الصفات، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [(١-٤) سورة الأعلى] فذلك لموصوف واحد، يعني العطف تارة يكون من باب عطف الصفات، والمقصود الموصوف واحد، وتارة يكون العطف يقتضي المغايرة بتعدد الذوات، وينزل تعدد الصفات منزلة تعدد الذوات بهذا الاعتبار فيصح التعاطف، وقد تتعاقب مع حذف حرف العطف.

والقول بأن المنافقين كانوا في صف المسلمين في يوم بدر قول باطل، فهذه الآية إما أن تكون تحدثت عن القضية فيما بعد، بعدما ظهر النفاق، فبعد غزوة بدر وجد النفاق، ويمكن أن تكون هذه الآية تتحدث عن الذين خرجوا بمكة، قال الله -عز وجل- فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [(٩٧) سورة النساء].

وقال الشوكاني -رحمه الله- في فتح القدير: قيل المنافقون: هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} هم الشاكون من غير نفاق، بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة أعني: {غَرَّ هَؤُلاء} أي: المسلمين {دِينُهُمْ} حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش.

وقيل: الذين في قلوبهم مرض هم المشركون ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون المدينة وما حولها، وأنهم هم المنافقون من أهل المدينة، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم في قلة من العدد، وضعف من العُدد، وذكر ابن عطية عن القاضي أبو محمد قال: إن النفاق أخص من مرض القلب؛ لأن مرض القلب مطلق على الكافر وعلى من اعترضه شبهة وعلى من بينهما.

وفرق الطاهر بن عاشور بين المنافقين وبين الآخرين فقال: فنظم الكلام هكذا: وزين الشيطان للمشركين أعمالهم حين كان المنافقون يقبحون أعمال المسلمين ويصفونهم بالغرور وقلة التدبير من اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور، ويجول في نفوس الذين في قلوبهم مرض مثل هذا، والقول هنا مستعمل في حقيقته ومجازه الشامل لحديث النفس؛ لأن المنافقين يقولون ذلك بألسنتهم، وأما الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم ممن لم يتمكن الإيمان من قلوبهم فيقولونه في أنفسهم لما لهم من شك في صدقه.

وهذا غير صحيح؛ لأن القول كالكلام يطلق على مجموع اللفظ والمعنى، ولا يكون في حديث النفس إطلاقاً، ولا يقال: قول، ويراد به حديث النفس إلا بقيد، قال في نفسه، زورت في نفسي مقالة، أما أن يكون هكذا يطلق القول ويراد به حديث النفس، فهذا لا يعرف لا في اللغة ولا في القرآن وإنما هذا يتأتى على عقيدة الأشاعرة، والمؤلف -رحمه الله- كان على عقيدة المتكلمين.

وقال الألوسي -رحمه الله- في الجواب عن الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال هم يومئذ في المسلمين، قال: وفي القلب من هذا شيء، فإن الذي تشهد الآثار أن أهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين.